

تضرب

فى احدى الجلسات الاخيرة لنادى القصة قرأ أحد الاخوان اقصوصة اوغل فيها الكاتب باستعمال لهجة محلية تونسية اذ جعل حوارها - وحتى بعض السرد - بتلك اللهجة المحلية الضيقة . وعندما طلب من الأخوة الحاضرين ابداء ملاحظاتهم حول الاقصوصة اعتذر الكثير منهم عن ابداء رأيه لأنه لم يفهم الكثير من الالفاظ والاستعمالات التى جاءت فى الاقصوصة . واذا كان هؤلاء المعتذرون تونسيين فما بالك بغير التونسيين . وبعد تلك الجلسة بأيام قليلة ذكر لى أحد المستشرقين اليوغسلافيين أنه عزم ذات مرة على ترجمة قصة لأحد الكتاب التونسيين . ولكن استعصى عليه ذلك لا يغال الكاتب فى استعمال الدارجة التونسية . وذهب يستنجد بالملحق الثقافى فى سفارتنا ببلغراد وسلم له الرواية . وجاءه بعد شهرين ، واذا جواب الملحق الثقافى أنه - هو بدوره - لم يفهم الكثير من الالفاظ والاستعمالات التى طلبها ذلك المستعرب .

والمشكل مطروح على مستوى الوطن العربى كله والالتجاء الى الدوارج فى أحيان كثيرة أمر لا بد منه . لأن القصة وصف للحياة « الحية » . والحياة « الحية » ما زال بينها وبين الفصحى حجاب تشتد سماكته وتخف حسب الحالات . ان الكثير من الدقائق والخلجات ، والعديد من الموصوفات والمستحدثات لا مندرجة لك فيها من استعمال اللغة - أو اللهجة - التى تستعمل ذلك المعنى

أو المدلول أو المسمى . ولكن المشكل يكمن فى كيفية المعالجة ، وطريقة الاستعمال والقضية تكمن كذلك فى التساؤل عن المدى الذى تقترب - اذا لم تتلاق - فيه الفصحى بالدوارج تقارباً لا يشعر بالنفرة ولا يصل الى الرطانة . ويبدو أن السير بطيء والخطة عشوائية وقد زادت منهما هذه التجزئات ، وأبعد الشقة هذا التكالب على الانقسام مما يكثر الخدائج ولا يستكمل الذات . حتى هذه « النهضة » التى نتغنى بها ، وهذه الخطة فى نشر التعليم ووسائل الاعلام ما زالت لم تؤت ثمارها المرتجاة اذ يطفى عليها من الارتجال ما يجعلها تهتم بالقشرة دون اللب ، وتتمسك بالعرض دون الجوهر ، وتتباهى بالمظهر دون المخبر . وتلك علاوات مراهقة فمتى نصل مرحلة النضج ؟

قصص



دائرة الضوء

الورقة مبسوطة أمامه . نظيفة . بيضاء .. المصباح الكهربائي يغمرها بنوره ، يحصر دائرة الضوء في مساحتها الصغيرة . والقلم بين أصابعه .. لا يتحرك .. لا يشعر بدبيب الدفء في الكف . ولا يهتز للمخاض في الأعماق !

بأعماقه كائن ، يهز نفسه هزا عنيفا ، يعتمل في أعماقها ، يود الخروج الى الفضاء الواسع ، يريد أن يصبح كائنا تام الحلقة ، متميز الصفات ، عميق الدلالات والابعاد . وهي تنفعل به .. وتتفاعل معه .. ومع ذلك لا تسمح له بالدخول في دائرة الضوء . ولا تريده أن يكون لغيرها !

وتظل نفسه متمسكة بموقفها ، فتشتد آلام المخاض في الأعماق . وينتشر الظلم في مساحة الورقة الصغيرة . وتمتزج برودة القلم بنعومة الدفء في الكف .

ويطول به الجلوس ، والصراع لا يهدأ بأعماقه . ونفسه لا تغير من موقفها ، فتضيق دائرة الضوء أمامه .. وتضجر مساحة الورقة الصغيرة .. وتضرب كفه اليسرى مكتبه ، ويتواصل ضربها .. فينتبه إليها ، ويوقفها .. ثم يدخلها دائرة الضوء ، فتحجب الورقة .. وتظل مبسوطة أمامه . ينظر إليها .. يتأملها .. ونفسه تهمس في أذنه ، همسا ، خافتا ، متقطعا :

« كفك عريضة .. بشرتها ناعمة .. خطوطها عميقة ، مجهولة البداية . مجهولة النهاية : تمتد .. تنحني .. تنكسر .. تتقاطع .. الدغدغة تدب فيها ولا ترى لدبيبها أثرا . تتنقل بينها ولا تسمع لتنقلها وقعا . ألا تتوق لرؤيتها ..؟ ألا تستقرى رسومها الخفية ..؟ لم تنبع الدغدغة من أعماق كفك ..؟ ما الذى يجعلها تدب هذا الدبيب الناعم ..؟ أى شئ يكمن خلفها ..؟ أى قوة تتصرف فيها ..؟ ألم تدغدغك كفك أكثر من مرة ..؟ ألم تقبض إثر كل مرة ما لا كنت فى حاجة اليه ..؟ فلم الآن تتجاهلها ، وتنتظر بعمى المبالاة بـ ... »

ويبتلع الظلام همس نفسه ، يبتلعه ، يبتلع كفه .. فيظل واجماً ، لا يتحرك ..! وفجأة ينتزع نور المصباح من قلب الظلام ، ينتزع كفه من دائرة الضوء .. فتبرز الورقة الظمأى أمامه ، فيشتد غيظه . وينتبه الى برودة القلم بين أصابعه ، فيعاقب نفسه ..! :

« ما الذى دفع بك الى كفى فى هذه الآونة ..! أهذه ساعة الانشغال بالكف ..! تميلين بى الى حب الاخذ وأنا فى ساعة أطمح فيها الى العطاء ..! تهتمين بتفسير ما تنبئ به الكف وأنا اجلس لتجسيم ما اعتل فى طياتك ، وهزك هزا عنيفا ..! ألم تتفاعلى معه ..! ألم يكن احساسك به صادقا ..! ويحس بها تضطرب بين جوانحه .. تغلق الابواب المفتوحة فى كيانه .. تنتزع القلم من بين أصابعه .. تبسط كفه اليمنى فى دائرة الضوء .. ثم تكتب عليها بالقلم :

« أما كفك هذه . فصغيرة ، وضيقة .. خطوطها سطحية ، متعددة الرؤوس ، دقيقة الاذناب .. ما بين كل رأس وذنب ، ارجل دقيقة كأرجل النمل . دبيب الدغدغة فيها دبيب نمل لا تستلطفه .. يقرص بشرتها الناعمة .. ينذرها بعطاء لا ترغب فيه . وأنت تكره العطاء .. تكره يدك وهى تتسلل الى جيبك .. تكرهها وهى تسلم النقود .. ويشتد كرهك لها وهى تعود اليك فارغة .. ويغيبك فراغها ، فتبتئس ، وتظل طوال يومك بانسا ، حزينا ..! » .

ويتوقف القلم عن الكتابة ، وصوت فى الاعماق يصرخ :

« لا .. لا ..! هذا مسخ وتشويه ..! كيف تقصرين العطاء على المادة وحدها ، وكأنه لم يوجد الا لوجودها ..! ألم تنشرحى للابتسامة المشرقة ..! ألم ترقصى فرحا للكلمة الطيبة ..! ألم تسعدى يوما بعمل أشعرك بسعادة الآخرين ..! هذا هو العطاء الذى لا يزول بزوال المادة . ولا يفنى بفنائها ، فتبا لك . ولعطاء لا يكون فى دائرة الضوء ..! » .

ويقصف الرعد ، فيرتعش نور المصباح . وتنقر حبات المطر نافذته .. لا شئ أمامه : الورقة البيضاء يأكلها الظمأ .. القلم بين أصابعه .. لم تنتزع نفسه ، ولم تكتب به على كفه ، فيضغطه بأصابعه ، ويلقى به على مكتبه ..!

ويظل ينظر الى كفيه برهة .. ثم يضمهما الى بعضهما ، ويضغط بالواحدة على الاخرى ، والمطر يهوى على الارض .. يهوى على سطح بيته .. ينزل على

رأسه .. يبلى ثيابه ..!.. ينفذ الى مسام جلده ..! وأصابه ترتخي . وكفاه
تنفصلا عن بعضهما ، وتنسبطان أمامه ، فينظر اليهما مليا ، ثم يدخلهما
دائرة الضوء .. يغسلهما بنور الصباح .. يفركهما فركا .. وصوت المطر
يرتفع . ومزاريب السطوح تتدفق ماء ..

وينفض كفيه .. ثم يمسك بالقلم من جديد ، والابواب المغلقة في كيانه
تتفتح ..: في كل باب وجه ذلك المخلوق ، يتحفز للخروج الى الفضاء الواسع ..
ينظر الى دائرة الضوء .. ينظر الى الورقة الظمى ينظر الى القلم ، فيقترب منه .
ويتعلق به ، فيحمله ، ويقطع به المسافة الفاصلة بينه وبين الورقة ، ويضعه
عليها برفق ، فتحضنه .. وتضمه اليها ، فيرتوى ظمؤها ..!

وتظهر ملامح مخلوقه على صفحة الورقة ، والمطر تخف وطأته . ومزاريب
السطوح ينقطع ماؤها ، فيبتهج ..! ويمعن النظر فيه ، فيرى وجها مستديرا
كدائرة الضوء ! منيرا كنورها ..! وفجأة يغمض عينيه .. ثم يفتحهما من
جديد ، فيراه بلا كفين ..!

وينتابه شعور بالحيرة والاسى ، فيخاطبه :
— ما عساك أن تكون يا مخلوقى المشوه ..! ما دورك فى الحياة ..! كيف
تقوى على البقاء وأنت بلا كفين ..! <http://Archivebeta3ul.com>
ويشعر بالارهاق والاعياء . ويأسف على ضياع ساعات لم يرح فيها جسمه
المنهك ، فيتساءل فى مرارة :

— ماذا أنا صانع به ..! أعيده الى سجنه ، أم أمزقه تمزيقا ..!

ويهم بتمزيقه ، فيراه يغتسل بنور الصباح .. يلتقط دفقات النور بعينيه ،
يفيضها على جسمه .. وينظر الى الاشياء بالقرب منه ، فتتحرك .. يرى ذلك
فى عينى مخلوقه فيصيح فرحا :

— هكذا يكون الخلق ..! وكذلك يكون التميز ...! وبذلك تحتفظ الاشياء
بطهارتها . فلا يدنسها طمع .. ولا يزيفها كره .. فلتكن كما أردت أن تكون
يا مخلوقى العجيب ..! عسى أن تصبح أبا أو جدا لمخلوقات ليست فى حاجة
الى حاسة لمس ..!

عبد العزيز فاخت

قصة : مارس 1983

ليلة رأس السنة

رغم ما كان ينتابنى من احساس بالعزلة والاغتراب أحيانا لوجودى فى تلك الواحة الرابضة على أبواب الصحراء فاننى لم أكن ممن يترددون كثيرا على النزل السياحية الموجودة بها بحثا عن الاستمتاع والسلوى - وقتل الوقت - كما هو شأن معظم أبناء المدن الذين انتدبوا مثل للعمل بالواحة .

ذات مساء بينما كنت أتهيا لمغادرة مقهى - العجوزة - الذى تعودت التردد عليه بين الحين والحين عائدا الى البيت اذا بصديق لى يعترض سبيلى . وبعد تبادل التحية والسؤال عن الصحة والاحوال اقترح علي مرافقته الى أحد النزل لتناول العشاء وتمضية بعض الوقت وتغيير الجو ..

قلت فى نفسى : إنها فرصة لكسر طوق الوحدة والرتابة الذى ما انفك يطبق علي منذ شهور ويكاد يكتم أنفاسى . ركبنا سيارته الجديدة الانيقة التى احضرها معه مؤخرا من ليبيا حيث كان يعمل ضمن أفراد البعثة التعليمية هناك وشرنا باتجاه أضخم النزل وأحدثها بالبلدة . بالبواب وجدنا عم سالم واقفا وسط جمع من الشبان من أبناء الواحة مضوا يترجونه ويتوسلون اليه أن يسمح لهم بالدخول وهو يصدهم ويدفعهم بعيدا عن البواب فى شىء من الغلظة والحدة . انه مشهد يتكرر كل ليلة أكثر من مرة . وما إن وقع نظره علينا حتى تقدم منا مرحبا فاسحا لنا الطريق .

رثيت لحاله ولحال أولئك الشبان وأحسست بالشفقة عليهم جميعا . فقد كانت الليلة شديدة القر ووجدتنى أتساءل بينى وبين نفسى : كيف يرضى بعض الناس لانفسهم أن يقطعوا عدة أميال أحيانا سيرا على الاقدام فى مثل هذا الجو القاسى من أجل تناول بضعة كؤوس من الحمرة أو الجعة أو مشاهدة حفنة من السائحات وفى أحيان كثيرة لا يسمح لهم بالدخول !؟..

بقاعة الاكل الكبرى السابحة فى بحر من الاضواء المتلألئة المتعددة الالوان
المزينة أجمل زينة وجدنا عددا من السياح قد جلسوا الى موائد الطعام التى
نصبت بجنبات القاعة فى شكل هلال تتوسطه شجرة عيد الميلاد التى تدلت منها
مجموعة من الكرات والمصابيح الصغيرة الملونة وبضع زرع من القطن الناصعة
البياض .

التفت الى صديقى أسأله :

— كأن الليلة ليلة عيد رأس السنة .

أجابنى فى شبه عتاب :

— يبدو أن وجودك بالواحة سينسيك حتى الزمن فى النهاية أيعقل أن
يغفل مثقف مثلك عن تذكر مناسبة عظيمة كهذه ؟!..

— لست مسيحيا كما تعلم .

— ولو ..

— تأكد لو كنت أعلم بالامر قبل الآن لما قبلت المجيء معك .

— لا تكن متزمتا <http://Archivebeta.Sakhrit.com>

— ان لنا أعيادنا الخاصة بنا ولسنا بحاجة للاحتفال بأعياد الآخرين .

— دعنا من هذا الآن ولنر ماذا نطلب للعشاء ، ها هو النادل قادم ناحيتنا .

حضر الطعام . وجاء مدير النزل فسلم علينا . ثم اعتذر وانصرف .
وفرغنا من الاكل وطلبنا قهوة ومضيينا نواصل ما كنا فيه من حديث . وقدم
بعض عملة النزل وشرعوا فى رفع الاطباق والوانى من على الموائد ليضعوا
مكانها الكؤوس وقوارير الخمر .

وأخذ جماعة السياح فى تبادل الانخاب والثروة والضحك والغناء . ويبدو
أنهم نسوا وجود بعض أبناء البلاد معهم فى القاعة ..! واقتحم القاعة نفر من
الشبان فى جلبه وصخب ، انهم من أبناء مدينتى . ولمحنى بعضهم فجاؤوا
لتحيتى . لقد أرادوا الاحتفال بليلة رأس السنة بعيدا عن المدينة وعن صخب
نزلهما وأزدحامها .

وتتجاوب فى القاعة انغام موسيقى - الدجارك - ، يستأذن الشبان ويبدأ الرقص . ويتقدم ناحيتنا شاب وفتاة يرتديان لباس السهرة . حيانا الشاب فى ادب جم واتخذ مكانه بجوارى وجلست رفيقته بجانبه . وقدم النادل وسألها ماذا يطلبان . قالوا فى صوت واحد :

- وسكى .

وشغلت عنهما بالتحدث الى صديقى وبمتابعة الرقص .

ورأيت الفتاة تنهض خفيفة رشيقة وتمضى الى حلبة الرقص . واختلطت بالراقصتين والراقصات ، وجاءت بعد حين لتطلب كأسا من الوسكى ثم تعود الى الرقص من جديد .

ويلتفت الشاب ناحيتى ويقدم لى لفافة - كنت - يشعلها لى من ولاعته الالكترونية الفاخرة . ثم يسألنى إن كنت من أبناء الواحة ، ويتخلص من تحفظه ويبدو عليه الارتياح حين يعلم أننى - بلدى - مثله ، ويفتح لى قلبه . اسمه شوقى من مواليد احدى مدن الوسط ، من أسرة متواضعة محافظة ، خريج أحد المعاهد العليا ، موظف مرموق باحدى الشركات الكبرى .

وتعود الفتاة ، ارتمت على المقعد فى تهالك وبعد أن التقطت أنفاسها طلبت كأسا من الوسكى وحذا شوقى حذوها ورجانى أن أطلب شيئا لنفسى فاعتذرت شاكرة له لطفه .

وقدمنى الى رفيقته وقدمها الى قائلا :

- سنيا زوجتى ...

شعرت برعشة خفيفة عذبة تداعب كيانى عندما لامست كفها الصغيرة الناعمة كفى مرددة فى صوت أرق من النسيم فى عشايا الصيف :

- تشرفنا ..

يا إلهي . ماذا أرى ؟.. مضيت أحلق فيها كالابله أو المسحور ، أو كمن فقد الذاكرة فجأة . أتملئ دقائق حسننها الخلاب . كنت أراها عن قرب لأول

مرة . تبارك الله الذى خلق الانسان فى أحسن تقويم . وتهت فى خضم شعرها الناعم الفاحم الطويل وعينيها الدعجاوين الواسعتين ، سمراء فى سمرتها صفاء ونقاء ، أنفها دقيق مستقيم ، ثغرها كخاتم سليمان ، أسنانها بيضاء منتظمة تزري بمجموعة من الجواهر النادرة ، جيدها طويل ، صدرها ناهد فى شموخ ، نسيت زوجها وصديقى وكل من حولى . نسيت الزمان والمكان وحتى نفسى . وملأت أصداء الموسيقى سمعى وكيانى ، وازدادت الاضواء لمعانا وتلونا وسحرا فى عيني . هل أنا فى يقظة أم فى منام ؟.. أم فى عالم غير هذا العالم ؟..

وانتبهت الى نفسى على حفيف صوتها المخمل تسألنى :

- ما رأيك فى رقصتى ؟..

- رائع .

- شوقى لا يحب الرقص لذلك فهو لا يريدنى أن أرقص . أليس هذا

ظلما بربك ؟..

ورمتنى بنظرة عميقة من عينيها الأسرتين وتابعت تقول :

- وأنت ألا تحب الرقص ؟.. <http://Archivebeta.Sci.hk>

- لا .

- أنت كشوقى اذن .. كلاسيكى يعنى ...

قالت ذلك وابتسمت . وقدم النادل فقالت له دون أن تأخذ رأينا :

- هات وسكى للجميع .

- دوبل لى أنا ..

وخيم الصمت بيننا . وعاد النادل بعد حين حاملا كؤوس الوسكى . تناولت كأسها وأفرغتها فى جوفها دفعة واحدة ثم نهضت ومضت الى حلبة الرقص .

أخذت أتابعها بنظرى . أتفحصها من أمام ومن خلف ، من أعلى ومن أسفل كأنى أراها للمرة الاولى . فارعة هيفاء عجزاء ، انها الجمال مجسدا بكل عمقه وسحره وجلاله يسمى بيننا على الارض .

وبدا لى شوقى حزيننا مكتئبا . وحين حاولت أن أعرف منه السبب تنهد فى عمق وحرقة والتفت الي وقال والمرارة تقطر من كلماته :

- أصدقك القول انى حزين يا صديقى . ولست أدري ماذا علي أن أفعل . وصمت لحظة ثم عاد يقول وقد تعلق نظره بسنيا التى كانت منهمكة فى الرقص بصورة بدت معها كأنها فى شبه غيبوبة :

- هل تصدق ان سنيا هذه المرأة الكاملة الانوثة لم تكمل بعد ربيعها السادس عشر . انها ما تزال فتاة مراهقة لا تفقه شيئا من أسرار الحياة . الحياة فى نظرها لعب ولهو واستمتاع . نشأت على التحرر والانعقاد منذ الصغر فى أسرة برجوازية لا تعترف بشيء اسمه الاصاله والتقاليد .

ويتوقف محدثى عن الكلام ويتناول علبة التبغ من على المائدة ويقدمها لى قائلا :

ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

- تفضل .

قلت :

- لا وشكرا . انى أفضل أن أدخن من تبغى الخاص .

سحب لفافة أشعلها وجذب منها نفسا عميقا ثم عاد يقول :

- بعد أن انهيت دراستى الثانوية بمسقط رأسى انتقلت الى العاصمة لمتابعة تعليمى العالى بأحد معاهدها . وهناك تعرفت على نرجس شقيقة سنيا ، كانت زميلتى فى الفصل وبسرعة غريبة ربطت بيننا صداقة متينة تحولت بمرور الايام الى حب . تعاهدنا على الزواج ، وباركت أسرتها رغبتنا . وسارت بنا الايام سعيدة وادعة واعدة كلها حب وتفاؤل وأمل ورضى . وفى أواخر السنة الثانية أصيبت نرجس بمرض مفاجئ قيل : إنه تسوس فى العظام لم يمهلها طويلا . هزتنى الفاجعة هزة عنيفة كدت أن استسلم لليأس وفكرت فى الانقطاع عن الدراسة لكنى تجلدت وتجملت بالصبر وقاومت حتى خرجت من تلك التجربة القاسية . لم تنقطع صلتى بأسرة حبيبتي الراحلة . وذات يوم ذهبت لزيارتهم كالعادة ، وتغنم أم نرجس فرصة اختلائها بى لتقول لى :

- لقد صرت واحدا منا . ويعز علينا أن تنقطع صلتك بنا بعد هذه العشرة . كلنا نحبك ونجلك ويسعدنا أن تكون صهرا لنا فما رأيك لو جمعنا بينك وبين سنيا ..؟

كانت مفاجأة لم تخطر لي على بال . سنيا هذه الطفلة الكبيرة ، لا أنكر انها جميلة جدا لا وجه للمقارنة بينها وبين نرجس . مكتملة الانوثة ، ذكية مرحة تتدفق صحة وحيوية لكنها مع ذلك ما تزال فتاة غريبة .

قلت :

- ان سنيا ما تزال طفلة ..

- لا يهم .

- قد لا أستطيع أن انتظر بضع سنوات أخرى ...

- ليس هناك ما يجبرك على الانتظار .

- كيف وسنيا دون السن القانوني ...؟

- دع هذا الامر لي ..

وهكذا كان ... <http://Archivebeta.Sakhrit.com>

صمت شوقي لحظة وأخرج محفظته وتناول منها ورقة مطوية سلمها إلي قائلا :

- خذ إقرأ .. هذا رسم صداقنا . بعد خمسة أشهر وأربعة أيام وست ساعات من منتصف هذه الليلة سوف تكمل سنيا عامها السادس عشر . وبنهاية هذه الليلة ينتهي الاسبوع الاول من زواجنا ، وقد اخترنا قضاء شهر العسل بربوع الجنوب .

وجاءت سنيا تتهاذى فى فستانها الابيض المكشوف الصدر والظهر كاحدى آلهات الاغريق قد تصاعد الدم الى وجنتيها فزادها اشراقا وسحرا . قطرات من العرق تلتصق فوق جبينها الوضاء كأنها النجوم الزهر فى سماء صافية الاديم .

كانت تلهث من فرط الاجهاد ، ألفت بنفسها فى المقعد وهى تقول بصوت متقطع :

- كان عليهم أن يوقفوا عمل المدفأة . لقد ارتفعت درجة الحرارة داخل القاعة بصورة لم تعد تحتل .

تناولت من حقيبة يدها منديلا مضت تجفف به العرق من على وجهها وجيدها وأعلى صدرها ، واذ تلمح أحد النداء يمر غير بعيد تدعوه فى عجلة :
- فارسون ... فارسون ...

تطلب قهوة مضغوطة فى حين أطلب أنا وشوقى وسكى لقد قررت أن أشرب حتى النهاية .

مال عليها شوقى وسألها فى لطف :

- هل تشكين من شىء ؟..

- أشعر بصداغ حاد .

- الامر بسيط . لدي علبة - أسور - بالسيارة ، سأحضر لك قرصا .

قال ذلك ومضى مسرعا .. وتلفتت سنيا إلى وتساءلت فى عتاب :

- لماذا رفضت الرقص معى ؟..

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

- أنا ؟..

- نعم أنت ..

- متى حدث ذلك .. ؟

- حين سألتك إن كنت تحب الرقص فأجبتنى بكل برود وخشونة :

- لا ..

- لقد سألتنى رأى فأجبتك بكل صدق وهذا كل ما فى الامر .

- كنت أدعوك بسؤالى الى مراقبتى .

- ومن أين لى أن أعرف ؟..

- لا تتظاهر بالغباء . كنت أحسبك ذكيا لا يغيب عنك أمر بسيط كهذا .

- أشكرك وأرجوك المائدة ..

- كان المفروض أن تكون أكثر لطفا وتادبا معى فلا ترد على سؤالى بذلك

الجواب القاطع الجاف .

- انى آسف .
- هل معنى هذا انك لا تمنع فى مصاحبتى الى حلبة الرقص ؟
- يؤسفنى أن أخيب ظنك مرة أخرى ..
- أنت انسان غير مهذب ، ومفرور أيضا ..
- أشكرك .
- من تظن نفسك ؟..
- مجرد انسان لا غير يا سيدتى الجميلة .
- أنانى .. لم لم تحضر زوجتك معك ؟..
- لسبب بسيط ، هو اننى غير متزوج .
- أحقا ..؟
- نعم ..
- فى مثل هذه السن رغير متزوج هذا يعنى أشياء كثيرة ..؟
- قد يكون .
- هل تكره المرأة ؟..
- لا طبعا ..
- لماذا لم تتزوج اذن ؟..
- هذا حديث يطول شرحه ..
- وعاد شوقى حاملا قرص الدواء فتناولته منه ونزعت عنه مغلغه ثم وضعت
فى رفق على طرف لسانها وبلعته . وأخذت اثره جرعة من الماء ثم عادت الى
ترشف قهوتها .
- خرست الموسيقى ، توقف الرقص ، خيم الصمت وارتفعت بعض الاصوات
مرددة :
- دقيقة .. ثلاثون ثانية .. عشر ثوان .. منتصف الليل ...
- ثم أطفأت الانوار ، وغرقت القاعة فى الظلام ، وترددت الهمسات والغمغات
هنا وهناك .. وأحسست كأن شيئا يحدث بالقرب منى . واعتراانى شعور

بالوحدة والضياع . وفجأة انتشر الضوء في القاعة من جديد ، واخذ الجميع في تبادل التهاني والقبلات . ووجدتني انهض لتقبل تهنئة صديقي وجاري . شعرت برعشة لذيذة ناعمة تدغدغ جسدي المعذب المحروم حين دنت سنيا مني وأسلمت لي خديها الورديين لاضع عليهما شفتي الظامتين الى رحيق الفتوة والفنون . وعلى ثغرها الشفقى الشهى يرفرف طيف ابتسامة ندية مرددة في همس مسكر وهي تضغط على يدي في رفق :

- بون أني ...

وتقدمنا الى وسط القاعة لتبادل التهنئة مع بقية القوم الذين بادروا بعضهم بالسعى الينا .

وجاؤوا بتورطة العيد . وضعوها على احدى الموائد وتقدم مدير النزل وشرع في قطعها واضعا كل قطعة يقطعها منها في طبق صغير في حين كان أحد العمال يقوم بوضع ملعقة صغيرة ومنديل من الورق بكل طبق قبل تقديمه الى أحد الحاضرين الذين انتشروا في القاعة جماعات جماعات يضجون بالحديث وقد انهمكوا في تناول ما بين أيديهم في جو يغمره البشور والمرح .

وحلت بالمكان فرقة صغيرة للموسيقى الشعبية ، عازف على المزمار وناقر على الطبله وآخر على الدف . وشرعوا في العزف والغناء . امتلأت الحلبة بالراقصين والراقصات . كان منظر السباح مضحكا للغاية وهم يحاولون تقليد ابناء البلد في تأدية الرقصات الوطنية .

نهضت سنيا ومضت الى حلبة الرقص بعد ان نزعنا حذاءها وشدت وسطها بشال من الحرير كانت تضعه على كتفها عندما رأيتها تدخل القاعة اول مرة ورقصت فأبدعت . كانت تتمايل وتتنثنى يمنة ويسرة ، الى الامام والى الخلف كامهر وأقدر الراقصات المحترفات متجاوبة مع الالحان في توافق وانسجام تؤكد حركاتها المتراوحة بين النعومة والسرعة والعنف تمشيا مع مقتضيات اللحن والايقاع .

ومضت أتابعها في انبهار . ويتوقف العزف وتعود لتأخذ مكانها بيني وبين زوجها بعد أن طلبت منه أن يترك مقعده لها . ! كانت تتصبب عرقا ، صدرها يعلو وينخفض من فرط التعب . قلت لها وأنا أملا عينى من محياها المتورد :

- لقد كنت رائعة .. كنت نجمة السهرة بلا منازع .
- قالت لي في ابتسام :
- مرسى ...
- والتفتت نحو شوقى وقالت له فى شبه عتاب :
- ألا تطلب لنا وسكى ...
- قال فى لطف وفى شبه رجاء :
- لقد شربت كثيرا وأخشى أن ...
- قالت مقاطعة وقد اكتسى صوتها نبرة غاضبة :
- تخشى ماذا ؟ هل ترانى غبت عن وعيى ؟
- لم أقصد ولكن ..
- لا لكن ولا حاجة ، قلت أريد أن أشرب .
- قال فى استسلام :
- حاضر ..
- قام وسار باتجاه المشرب .
- التفتت إلي وقالت :
- كنت أتمنى أن أراك ترقص .
- لتضحكى مني .
- لا أبدا . إنني على يقين من أنك تجيد الرقص .
- الرقص العربى أم الغربى ..؟
- هذا وذاك .
- وساد الصمت بيننا لحظات . ثم عادت جارتى الحسنة لتقول لي :
- يخيل الى ان فى طبعك ميلا الى التحدى .
- انى لا أنكر ذلك .
- هل تجد متعة فى تحدى الآخرين ؟
- فى تحدى الذين يتناولون على غيرهم بما لهم من مال ونفوذ .

- والمرأة ..
- ليس دائما ..
- آه لو كنت جارنا لأريتك كيف يكون التحدى ..
- أحمد الله الذى لم يمتحننى بجيرتكم .
- أكره أن تكون جارنا حقا ..؟
- اذا كنت سأصبح فى مواجهة معك .
- هل تخافنى الى هذا الحد ..؟
- أخاف جمالك الآسر .. انى لا أخشى شيئا فى هذه الحياة خشيتى من الجمال الذى أجد نفسى ضعيفا حيا له .
- مالت برأسها الى الخلف وحركته حركة سريعة الى اليمين وإلى الشمال تسوى شعرها المتهدل على جبينها ووجنتيها وقالت فى دلال :
- هل أنا جميلة حقا ..؟
- أو تسألين .. لو لقيتك بمكان قفر لسلمت بأفك حورية غضبت عليها السماء فألقت بها الى الأرض .
- <http://Archivebeta.Sakhril.com>
- ضحكت فى سعادة غامرة حتى دمت عيناها . وجاء شوقى حاملا كؤوس الحمر فبادرته قائلة وهى تشير إلى :
- ان صديقك هذا يقول ...
- وتتوقف عن الكلام لتفرق فى الضحك من جديد .
- وينتابنى احساس بالحرج هل ستتحدث اليه بكل ما دار بيننا ؟؟ ويسألها زوجها فى فضول :
- ماذا قال ؟
- توقفت عن الضحك وبعد أن شملتني بنظرة من عينيها الناعستين مضت تقول وقد بدأ أثر السكر واضحا فى صوتها :
- يقول يا سيدى إنه لا يستبعد وجود بعض الحور العين يعيشن على هذه الأرض فى صورة نساء جميلات .
- قال شوقى باسم :

- لا تؤاخذيه انه أديب . لقد حدثني عنه مدير المنزل حديثا طريفا . والادباء
- كما تعلمين - يحلو لهم العيش فى دنيا الخيال أحيانا .

نظرت إلي واستوت فى جلستها وبدأت أكثر جدية وقالت :

- فأنت كاتب اذن ؟..

- بعض الناس يعتبروننى كذلك ..

- وأنت ؟..

- انى لم أكتشف نفسى بعد ..

- هل تتفلسف معى ؟..

- لا أبدا .

- فهو التواضع اذن ؟..

- بل هى الحقيقة ..

- هل ستكتب عن هذه الليلة ؟..

- لست أدرى ..

- وان فعلت هل ستكتب عني ..

- بالتأكيد .

- أرجو ألا تكون قاسيا فى حكمك علي ..

- اطمئنى ..

وجاء بعض الشبان من أبناء بلدتى ناحيتنا ، تقدم أحدهم منى وخاطبنى
قائلا :

- ستسهر معنا الليلة حتى الصباح ، لن نتركك تذهب واعمل حسابك
بأنك ستبيت هنا .

قال شوقى مرحبا بالفكرة :

- حسنا تفعلون . كلنا نريده أن يبقى بيننا .

ويعود الشاب الى القول موجه حديثه إلي :

- لقد حجزنا لك الغرفة 18 واسعة وتقع فى مكان هادئ جميل . ها هو المفتاح احتفظ به معك .

صاحت سنيا :

- اننا نقيم بجوارك بالغرفة رقم 17 .

سلمنى الفتى مفتاح الغرفة وحيانا هو ورفاقه وانصرفوا لينضموا الى جماعة الراقصين دون أن يمنحونى فرصة لشكرهم او الاعتذار اليهم .

ورابنى غياب صديقى فسألت عنه . لقد استأذن فى التغيب عنا بعض الوقت . ثم لم يعد رغم مرور أكثر من ساعتين على زمن مفارقتة لنا ..! وقيل لى : انه كان بالمشرب طيلة الوقت مع جماعة من العملة المهاجرين يشربون وقد عاد به أحد أقاربه الى منزله منذ حين عندما لاحظ بأن حالته قد ساءت ولم يعد يفقه ما يفعل أو يقول . وأسفت لذلك أسفا شديدا .

امتد بنا السهر وثقلت منا الرؤوس ، تعب الجميع من الرقص فلاموا مقاعدهم يثرثرون وسط صخب صوت الطلبة والمزار ، وأخذ بعضهم فى مغادرة المكان مثنى وفرادى وسمعت سنيا تقول لى :

- سى محمد استأذن ، انى متعبة ، يجب أن أذهب الآن وأرجو أن نراك فى الصباح . الساعة ٠٠ الساعة التاسعة مثلا . ممكن ٠٠؟
- إن شاء الله .

نهضت ونهض شوقى بدوره وقال وهو يصافحنى مودعا :

- أعتقد اننا تعبنا جميعا . لقد سهرنا بما فيه الكفاية . موعدنا صباح الغد . ليلتك سعيدة .

وأمسك بذراع زوجته وسارا يتعشران فى مشيتهما ولم يبق لى الا أن انصرف أنا أيضا . لم يعد يوجد بالقاعة الا بضعة شبان وبعض العملة الذين انهمكوا فى تنظيف القاعة واعادة تنظيمها وأعدادها لوجبة الافطار . لقد انصرف الجميع حتى أفراد الفرقة . كانت الساعة تقترب من الثانية صباحا . سألت أحد الخدم عن موقع غرفتى فترك عمله وسار يتقدمنى قائلا :

- تفضل .. تعال معي ..

أخذ منى مفتاح الغرفة وفتح الباب ودخل فاضاء النور وشغل المدفأة الكهربائية . وقبل ان ينصرف سألتني ان كنت اريد شيئا ما فشكرته وودعني ومضى .

أردت أن أدخن لغافة قبل أن أنام ، بحثت عن العلبة فلم أجدها ، يبدو أنني نسيتها بالقاعة . وعدت للبحث عنها ، وجدتتها حيث تركتها على المنضدة وبينما أنا أهم بالرجوع اذ بأولئك الشبان من بلدتي قد ظهروا امامي فجأة . كانوا في حالة سكر شديد . طلبوا منى أن اجلس معهم قليلا فهم يريدون أن يشربوا على نخبي . وصاح أحدهم بخادم من خدم النزل وطلب منه ان يحضر قارورة شمبانيا .

لست ادري كم كأسا شربت قبل ان اقنعهم ان يسمحوا لي بالانصراف

فتحت باب الغرفة ودخلت فاستقبلتني موجة من الدفء والعطر بعثت في شعورا من الارتياح و - اليقظة - بحثت عن الزر حتى عثرت عليه ثم أغلقت الباب بالمفتاح وبينما أنا أهم بنزع ملابسى تهادى الى صوتها واهنا كسولا :
- اطفئ النور أرجوك ..

بوغتت . التفتت ناحية الفراش فرأيتها بكل سحرها وشبابها في غلالة من الحرير الازرق لا تكاد تخفى شيئا من مفاتها . وقفت مكانى لا أبدي حراكا احملق فيها في ذهول وانتبهت من شرودى على صوتها يرتفع فى لهجة غاضبة:

- أوه .. قلت لك اطفئ النور ألا تسمع ...؟

لم أدر ماذا أفعل ، كنت فى حيرة وارتباك وبعد تردد قلت :

- لكن يجب أن تنهضى ..

صاحت فى انفعال :

- قلت اطفئ النور انه يؤلم عيني .

ووجدتني انصاع لامرها . خيم الصمت لحظة ثم سمعتها تقول :

- أين كنت ؟

- نسيت علبة التبغ فذهبت لاحتضارها .

ولمحتها على ضوء المدفأة تغادر الفراش فى حركة مفاجئة استوت واقفة وقالت
وقد بدا عليها الفزع متطلعة ناحيتى :

- من أنت ؟.. وكيف دخلت الى هنا وأين شوقى ؟..

عرفتها بنفسى وأفهمتها باننى فى غرفتى . وحدثتها بأمر خروجى وكيف
وجدتها نائمة فى فراشى ، قالت فى احدى :

- اشعل النور ..

كانت عابسة متجهمة . نظرت الى طويلا ثم أغرقت فى الضحك فجأة وبعد
أن هدأت سورتها قالت فى صوت هادى رقيق وقد لانت قسماتها :

- حسنا رب صدفة خير من ألف ميعاد .

ورفعت غطاء الفراش وان্দست تحته وهى تقول :

- اطفىء النور وتعال . ضوء المدفأة يكفى .

نزعت ثيابى وصعدت الى الفراش وأنا لا أكاد أصدق ما يحدث يحملنى
شعور من الرغبة والرغبة . كم هو غريب أمر هذا الانسان ، ومحير ، منذ
لحظات قليلة كنت لا أكاد أقوى على الوقوف والسير وفى طرفة عين تبدد كل
ما كنت أشعر به من ضعف وانهيار وعادت الى حيويتى كأنى لم أشرب
عشرات الكؤوس ولم أسهر الساعات الطوال .

قالت فى صوت حالم مخمور :

- لقد أحسست ذات لحظة برغبة ملحة فى الاختلاء بك . ومن الغريب أن
تتحول رغبة عابرة الى واقع حى بمثل هذه السرعة المدهشة نتيجة خطأ
بسيط .

وسكنت لحظة ثم عادت تقول :

- بعد أن تركناك . حاولت أن أنام فلم أجد الى النوم سبيلا ، شعرت
باختناق ودوار وبرغبة فى الغثيان فخرجت الى الحديقة معرضة نفسى للفتحات

الهواء الباردة فى محاولة للتخلص من الحالة التى كنت أعانى منها . كنت اتصعب عرقا . تمشيت فى الحديقة قليلا ، شعرت ببعض الراحة وعندما لسعنى البرد عدت أدراجى وقادتنى قدماى الى غرفتك خطأ وهكذا قدر لنا أن نلتقى على غير موعد . ان أجمل ما فى الحياة هذه المصادفات السعيدة التى تتخللها من حين لآخر والتى لولاها لفقدت حياتنا معنى من معانيها الجميلة .

قلت فى شىء من القلق :

– لو استيقظ شوقى ولم يجدك فسيقوم الدنيا ويقعدها وتكون الطامة الكبرى
قالت فى يقين :

– لن يستيقظ حتى لو زلزلت الارض زلزالها . ولن يحدث شىء مما تنوهمه . لقد استغرق فى النوم بمجرد أن ارتمى فى الفراش ونومه ثقيل بطبعه فما بالك به وقد شرب ما أنت به عليم واذا صادف وانتبه من نومه وشعر بغيابى فلن يفعل شيئا ، صدقنى ، انى أعرفه جيدا . انه انسان ضعيف يخاف غضبى ويتحاشى الوقوف فى وجهى حرصا على سمعته ومركزه وهو يفضل الموت على الفضيحة .

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

نزلت كلماتها بردا وسلاما على قلبى وبددت ما كنت اشعر به من قلق ، قلت وقد أخذت نار الرغبة تتأجج فى جسدى :

– أرجو أن تسمحى لى بأن أراك فى النور .

قالت فى صوت متهدج :

– أوقد مصباح السهرة .

تجردت من كل شىء ، وهبت على ريح عطرها وعرقها فأيقظت البركان الهاجع فى أعماقى . ومضت ناره تحرق فى كل شىء حتى حكمتى وتعقلى .

وكانت ليلة من ليالى العمر يفنى الزمان وتظل ذكراها دائمة لا تزول .

محمد الخموسى الحناشى

قابس فى : I2 – I – 1983

الطيب

دخلت علي السكرتيرة وقالت لي :

- رجل اسمه الطيب يريد مقابلتك !

فقلت لها متسائلا :

- اسمه الطيب ؟ هكذا الطيب فقط ؟!

فأجابت :

قال لي : قل له صديقك الطيب يريد مقابلتك ، فهو يعرفني .

فكرت : أياكون الطيب ؟ الطيب صديق الصبي ؟!!

استبعدت ذلك ... سنوات مضت ولم أره ... وفكرت ... لا أذكر أن لي

صديقا آخر اسمه الطيب ؟ وفي النهاية قلت لها :

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

- ادخليه .

غابت لحظات ... ثم فتحت الباب ، ودخل علي شاب طويل ، نحيف ، أسود اللون ، هو الطيب ، صديق الصبي ، الطيب نفسه ... دخل مبتسما ، محييا ، فقامت لحيني وقبلته وقبلني ، وعانقته وعانقني ... سررت كثيرا بهذا اللقاء المفاجيء السعيد ... الطيب صديق الصبي أمامي ، الطيب الصغير الذي كان يلعب معي وألعب معه ، ونلعب مع أطفال الزنقة كلها ، أمام عيني !! ... وجلس على كرسي بجانب مكتبي وجلست ... أشعر كأنني عدت في لمح البصر الى زمن الصبي ... كنا نمضي ساعات من أروع ساعات العمر وأجملها وأصفها ، كنا نلعب . كنا نمضي الصباح كله ونمضي العشية كلها مع أطفال الحي نلعب بالكرة لا نمل ولا نكل ... ونجري ونقفز ونمرح ... ويفر الطيب من بيننا فجأة عندما يشاهد أباه قادما علي بعد ، ويدخل الدار ... وتمضي دقائق ... ثم يقبل علينا عم محمد غاضبا صارخا ... ويخاصمنا نحن أطفال الزنقة المجانين ، ويلننا نحن أطفال الزنقة الحبياء الشياطين ... ثم

يطاردنا ونحن نضحك ، ويقتفى أثرنا بكسوته الزرقاء الداكنة وأزرارها النحاسية اللامعة ، وحذائه الاسود الطويل حتى ركبتيه ٠٠ ولا يستطيع أبدا القبض على أحد منا ، وكيف له أن يستطيع ذلك ونحن طيور ، طيور تفر لأدنى حركة ، تفر وتحرك أجنحتها بهدوء وثقة لأدنى سبب ، وتعلو وتحلق فى أرجاء الزنقة ... ويجرى عم محمد وراءنا بجسمه البدين ، وبطنه المكور المستدير ، كالرجل المطاطى « ميشلان » تماما ؛ وصفارته فى فمه يطلقها وراءنا مهددا متوعدا ... ونعلو ونرتفع فى السماء ضاحكين مستهزئين ... ويبقى عم محمد يجرى وراءنا صارخا لاهثا وعرقه يسيل ... ونبتعد قليلا ريثما يهدأ ... ويستنجد بالمارة من الجيران ، ويقص عليهم قصته ونحن نضحك على بعد ، وهم يبتسمون ... وفى النهاية ينفجر ضاحكا ... ثم يسرع ويدخل الى داره غاضبا ، ضاحكا ، متوعدا ويغلق الباب بعنف ... ونبقى نحن نتلوى من شدة الضحك ، ونكاد نسقط على الارض .

ها هو الطيب ابنه ، صديق الطفولة أمامى يبتسم ، أنظر اليه فأكاد أطيرو فرحا ، وأكاد أحلق فى أرجاء المكتب وأسمع صياح عم محمد ودوى صفارته...

أنظر الى الطيب أمامى فأرى طفلا صغيرا لم يبلغ العاشرة ، ظريف الانف والفم والعينين ، باسم الثفن ، متهلل الاسارير ، يبعث الفرح والانشراح فى كل من يصاحبه أو يحادثه أو حتى ينظر اليه ... وأشاهده يجرى ويركض ويعدو فى الازقة والانهج البعيدة ، والقريبة ، وفوق السطوح ، ويتصبب عرقا فيلمع كحبة زيتون سوداء .

لا أصدق عينى ، الطيب أمامى يبتسم وأبتسم اليه فابتسم الى طفولتنا كلها ، الى طفولتنا الجميلة المرحية ... ثم ، ثم قلت له مبتهجا وأنا لا أدري ماذا أقول أو بماذا أبدأ :

— فرصة سعيدة ، فرصة سعيدة يا طيب ، كيف ! كيف الاحوال ، كيف أنت وكيف العائلة كلها ؟

فاجابنى :

— بخير والحمد لله .

وابتسم ، فقلت له بكل انشراح ، ضاحكا :

- وكيف حال عم محمد ؟

فقال لى :

- توفى منذ سنتين تقريبا .

كدت أصعق ، سكنت دفعة واحدة ، خيم صمت ثقيل زمنا ... ثم قلت له بحزن عميق :

- الله يرحم عم محمد .

ابتسم ولم يجب ، عاد الصمت الثقيل من جديد . دقيقة دقيقتين ثلاثا ... ثم تابعت :

- وأخوتك كيف حالهم ؟!

فأجابنى قائلا :

- عبد الكريم ، أنت تعرفه ، ذهب الى الخارج ، الى فرنسا ، يعمل هناك منذ سنتين ، يرسلنا من حين الى آخر ... هو فى عيشة طيبة ، وأختي مريم ، أنت تعرفها ، لم تتزوج ، فهى فى المنزل ، وأخي الصغير ، الحبيب ، يعمل فى « فارج » لتصليح السيارات ، يتعلم ... ديناران فى الاسبوع ، لا يكفيانه ركوب « الكار » . وابتسم .
<http://Archivebeta.Sakhrk>

جعل ينظر الى قام على مكتبى ، بجانب ملفات أعدتها لى السكرتيرة لكى أنظر فيها وأحرر بعض تقارير يقدمها الكاتب غدا الى المحكمة ... بقينا صامتين زمنا ... ثم قلت له ببعض الحذر ... والامل :

- ووالدتك بخير ؟!

فأجابنى بمهل :

- الصحة بخير ، تعين قليلا ، تعمل فى بعض الديار ، تغسل الصابون . وابتسم .

اهتزت فى مكانى ، اضطربت ولم أدر ماذا أقول ، أمه ، أمه التى لم يكن يراها أحد ... أمه التى لا تقف عند باب الدار أبدا ، أمه التى لا تخرج الى الحمام الا وعم محمد أو الطيب معها ، وتسير مرتكبة الخطى ، مغنبرة ، ملففة فى سفساريتها لا يشاهد منها ظفر ساق ولا ظفر يد تغسل الصابون ؟!

كان يتابع كل ما يجول فى ذهنى ... يرفع بصره ونظر الى ... مرت لحظات ... وأخيرا قلت له متنهدا :

- وأنت يا طيب ماذا تعمل ؟

فأجابنى قائلا :

- لا شىء ، الآن هكذا كما ترى ، لا شىء .

وابتسم .

ازداد اهتمامى به . قدمت له سيجارة فقبلها بعد تردد .

رشقت سيجارة فى فمى ثم أشعلت له سيجارته ثم سيجارتى . جذبت نفسا وأنا أفكر فى شأنه ... نظرت اليه من خلال الدخان فاهتزرت : إني أشاهد الطيب يدخن لأول مرة فى حياتى ... نظرت اليه مليا ، وصورة وجهه صغيرا متعلقة بخيالى لا تفارقه ، وصدمت : شعر رأسه أبيض قبل أوانه ، تجاعيد لا يحصى عددها فوق جبينه وخديه ، أنفه الظريف انكمش ، شفاه جفتا من كثرة التدخين ، عيناه غائرتان ، وجهه شحوب شحوبا خاصا ، شحوب الذين لم تسعفهم الايام ولم تبتسم لهم الدنيا بل تنكرت لهم وأبرزت أنيابها وكشرت فى وجوههم ... كان كشجرة زيتون ، كشجرة زيتون كريمة طيبة بحثت جذورها عن ماء فوجدت قحطا ، فجفت وييسبت وتغير لونها ثم انفلق جذعها ، فوضع عليها حراس الغابة علامة لكى تجتث لتصير حطبا ...

كان يجذب من السيجارة نفسا طويلا ويخزنه فى أعماقه خزن المدخن المدمن الذى بقي أياما بدون تدخين ... ثم جعل ينفث الدخان ببطء ، ولذة ، مرات متوالية ... ثم تابع قائلا :

- « كنت أعمل فى الخارج ، فى بلاد ... بقيت سنوات فتحت خلالها « فاراج » لتصليح الشاحنات ، وجمعت مقدارا لا بأس به من المال ، جمعت ثروة من عرق جبينى ... ليلة قبض علي وأنا نائم فى بيتى . كما قبض على آلاف من الشبان من جنسيات مختلفة بدون سبب .

وابتسم ... ووضعت فى محتشد أياما بدون سبب ... وأسأل الحراس فلا يجيبنى أحد . وأحتج فأضرب وأهان ويصق على وجهى ... وفى النهاية وضعت على الحدود مع مئات من الشبان لا نحمل الا الملابس التى فوق

ظهورنا ... وآثار الضرب والتعذيب على كامل أجسادنا ... أنظر ، أنظر ...
وكشف عن ذراعه اليمنى ، ذراعى كسروها ، وتركت أياما بدون علاج ... ثم
جبروها لى معوجة ... بعض ضلوعى هشمت وتعذر علي التنفس أياما ...
كدت أموت ... عندما عدت الى تونس مكثت فى مستشفى الرابطة شهرين
كاملين ، كسروا ذراعى ثم جبروها لى من جديد ... والآن الحمد لله . وابتسم .

نظرت اليه بتأثر بالغ ، بحزن شديد ، بحزن لم أشعر بمثله مرة فى
حياتى ، ثم قلت له بصوت متغير :

- والآن .

فقال لى متنهدا فى آن واحد :

- الآن الحمد لله ، الصحة بخير والحمد لله .

جثم الصمت زمنا لم أدر كم طال ... ثم سمعته يقول وكأنه يحدثنى من
بعيد :

- سأفتح « ثاراج » لتصليح الشاحنات . لكن المسألة تتطلب شهرين أو
ثلاثة ... سأعمل خلالها فى بعض « الفاراجات » .
<http://Archivebeta.Sakhril.com>

بقيت ساكتا أفكر ... وكف الطيب عن الكلام ... مضى زمن وهو ينظر الى
القلم فوق مكتبى والى الملفات ... وكأنه يريد أن يقدم قضية ... ثم سمعته
يتابع قائلا وكأنه يحدث نفسه :

- الدنيا هكذا ، الايام تدور وتغير أيضا ... ثم سكت من جديد ... ثم
تابع ... لو يعطونى مال الدنيا كله لن أعود ... لو يعطونى مليوناً كل يوم لن
أعود وابتسم .

قلت له بحزم :

- أتريد أن أجد لك عملا ؟

فأجابنى على الفور :

- لا ، ما لهذا جئت .

تيقنت انه فى حاجة الى مال ، فقررت أن آخذ بيده وأعينه الى أقصى حد ،
فقلت له :

— ماذا تريد يا طيب قل لي ماذا تريد ؟

— لا ، لا شيء .

ازداد يقيني أنه في حاجة الى مال ، وأنه خجل ولم يستطع أن يبوح لي ...
فسأله مشجعا :

— قل لي ! أنت في حاجة الى مال لفتح « قاراج » كم تريد ؟!

فأجابني على الفور :

— لا ، شكرا .

فقلت له :

— يا طيب لا تخجل ، اني أريد أن أعينك الى أقصى حد ، لا تنس أبدا أنك
صديق عزيز ! وفتحت قجر مكتبي وأخرجت دفتر الصكوك وسألته :

— كم تريد يا طيب ، كم تريد ؟

فأجابني : <http://Archivebeta.Sakhrit.com>

— لا والله ، شكرا !

توقفت ، فتحت قجر مكتبي ثانية وتناولت كل ما فيه من المال وقلت له :
— بودى أن أقدم لك هدية ، هدية بسيطة ، هدية صديق لصديقه
فلا ترفضها .

ومددت له يدي بالحزمة من الاوراق المالية .

فأجابني بدون أن ينظر الى ما في يدي ، رافعا يده مبعدا يدي بكل رفق
وآدب :

— لا أبدا ، بارك الله فيك .

فقلت له :

— لا ترفض يا طيب ، لا ترفض يا طيب ؟!

فأجابنى فوراً :

– لا والله ! أبداً !! بارك الله فيك ... أنا جئت أزورك ، كما قلت لك .
ولأقص عليك قصتى ، سمعت أنك ذهبت الى الخارج ، ودرست ، وصرت
محامياً قديراً ، ذائع الصيت ، فعزمت على زيارتك .

وعاد ينظر الى الملفات من جديد ، ثم ... ثم قام .

رافقته الى الباب ، ودعته ، فابتسم .

أغلقت الباب ، وعدت الى مكتبى وأنا أسمع الطيب ينزل المدرج ببطء ...
عدت الى مكانى بسرعة ، وجلست ، كان المكتب كله يدور حولى ...

ولم تمض دقيقة حتى دق جرس الباب من جديد وبعنف : ثم دخلت علي
السكرتيرة مذعورة متغيرة اللون ، ودخل خلفها الطيب محمر العينين ، قائم
شعر الرأس ، عرقه يسيل على جبينه ، على خديه ، على رقبته وصاح بصوت
أجش غريب :
<http://Archivebeta.Sakhril.com>

– أعتقد أنك فهمت يا أستاذ ، بدون شك ولا ريب ، أتيقن أنك لست
غيا ، إنى لم آت لاسألك عن أحوالك فهى بخير وعلى أحسن ما يرام ، ولا
عن أحوالى فهى كما هى ، ولا لنتحدث عن طفولتنا . وانطلق يضحك ، عن
طفولته وطفولتى ، إنى أتيت يا أستاذ ، وازداد عرقه سيلانا ، وازدادت عيناه
احمرارا واشتعالا وتابع :

– انى أتيت يا أستاذ لأقدم قضية ، قضية اجرام . وصرخ . اجرام ضد
الانسانية ، أتيت يا أستاذ ... وعاد يضحك من جديد ، يقهقه ... يقهقه ...
وتجاوب لقهقهاته المكتب ، وتجاوبت له العماراة وارتجت وازدادت قهقهاته
ارتفاعا وبلغت صوت الرعد ... فاهتزت لها المدينة كلها .

محمود بلعيد

التصنيف النوعي للرواية الأدبية التونسية (*)

— II —

3 - 4 - الرواية الاجتماعية :

« الرواية الاجتماعية هي ان يقف الكاتب ليصف لنا الشرط الانساني في تحققة اليومى ليقول لنا اننا لا نبدا في عللنا ، نعيش معها ونسعى لان نتجاوزها ... » .

نبيل سليمان : مجلة الاقلام ، سنة I4 ، عدد I2

« بينما عكست « البيكاراسك » (حكاية الشطار وهي اقرب ما تكون من المقامات في الادب العربي) الانفتاح التبرجي للمجتمع نتيجة الحركة الفردية فان الرواية الاجتماعية قد اوضحت نجاح هذه الحركة في الانتصار السياسى لطبقة التجار ... » <http://Archivebeta.Sakhrit.com>

ارفينج هاو (نقلا عن مجلة الاقلام ، س I2 ، عدد 4)

قد يكون مصطلح « الرواية الاجتماعية » من أكثر المصطلحات غموضا اذ ان طبيعة الرواية الادبية نفسها ان تكون اجتماعية في شخوصها وحركيتها ورواجها لذلك يبدو ان الاهتمام الاجتماعى الذى قد تعكسه « الرواية الاجتماعية » قد نجد صدها فى عدة تعريفات لانماط اخرى من الرواية اذ نجد فى تعريف « الرواية التحليلية » من يرى انها : « هى التى تتعمق فى تحليل النفسيات واستبطان الطبائع » (I3) .

وفى هذا التعمق والتحليل الذى يستوجبه تناول الجوانب الاجتماعية من حياة الشخصيات . كما ان « رواية الشخصية » التى قد تكون من ابعاد انماط

(*) انظر قصص عدد 6I .

(I3) نور الدين بن بلقاسم : الرواية التونسية ، مجلة «قصص» ، عدد 29 ،

الرواية الادبية عن الرواية الاجتماعية تبرز عند «أدوين مور» فهي الصورة التي تصبح بها تحليلا للمجتمع اذ ان مهمتها الاساسية هي « تقديمها للتنوع الذي يوحى بصورة المجتمع ٠٠٠ » (I4) . ولعل المصطلح الذي يقترب اكثر من غيره من الرواية الاجتماعية - دون ان يكون اكثر دقة - هو «الرواية الفنية» تلك المتجذرة في الرواية الغربية سليله المجتمع البورجوازي الذي امسك مقاليد السياسة والاقتصاد خلال القرن التاسع عشر والتي تعكس تسلط الطبقات الوسطى وهيمنتها على حياة المجتمع . ومهما بقى في مصطلح الرواية الاجتماعية من غموض ومن امكانية تفريع الى انماط روائية اكثر دقة فان ما يراد به هنا هو ذلك النمط من الرواية الذي يتناول بالتحليل واقع فئات او طبقات اجتماعية او بنية اجتماعية ما شبه طبقية في تركيبها وذلك من خلال تقارب مصالح فئاتها . فالرواية الاجتماعية تحلل واقع مجموعة من الشخصيات ذات انتماء طبقي متنوع او موحد لكي تبرز التناقض بين معطيات وضعها وطموحاتها . وبذلك تكون الرواية الاجتماعية نقدية في هدفها تحليلية في بنائها متنامية في تطوير احداثها واقعية في شخوصها وزمنها وفضائها .

وبما ان كل ما يتناول التركيب الاجتماعي ومشاكله يمكن ان يحصر في نطاق الرواية الاجتماعية فقد يكون من الافضل ان نعتبر من الآن « الرواية الاجتماعية » نمطا كبيرا (في مستوى الرواية الصراعية) عنه تتفرع انماط روائية اخرى . وقبل التعرض لبعض هذه الانماط الفرعية في نطاق الرواية التونسية نشير الى امكانية تفريع الرواية الاجتماعية منهجيا - على الاقل - الى فرعين : الرواية الاجتماعية الطبقيية والرواية الاجتماعية الفضائية :

3 - 4 - 1 - الرواية الاجتماعية الطبقيية : وهي تلك التي تتناول بالتحليل حركة مجموعة من الشخصيات تخضع لنفس الزمن ونفس الفضاء الاطاري وتنتمى الى طبقات اجتماعية متضاربة المصالح . وعادة ما تبرز مثل هذه الروايات وضعا صراعيا ما اما على مستوى المجموعة او على مستوى الافراد . وتكون الرواية اعمق في بنائها وهدفيتها عندما يتخذ الكاتب من شخصيات

E. MUIR^٣ : The Structure of the novel. London 1954 (I4)

نقلا عن محمد الحديدي في : نموذج الرواية الاجتماعية المعاصرة - مجلة «المجلة» - عدد 172 - أفريل 1971 .

روايته الفردية رموزا لانتعاءات طبقية كما هو الامر فى بعض روايات نجيب محفوظ مثلا . وفى هذه الحالة يتركز الصراع اما حول المرأة أو حول النفوذ الاجتماعى . يكون الكاتب يسعى من خلال عرض مثل هذا من الصراع الى ابراز ظاهرة اجتماعية معينة كالتحول الاجتماعى مثلا الذى قد تعرفه طبقة ما نتيجة تحول سياسى او نتيجة حرب ما .

ومثل هذا النمط من الرواية الاجتماعية عريق فى الرواية التونسية وتجده يبرز حتى فى نماذجها الاولى التى لم تكتمل .

3 - 4 - 2 - الرواية الاجتماعية الفضائية : وهى تلك التى تتناول بالتحليل لحركة مجموعتين من الشخصيات تنتميان الى فضاءين مختلفين وتمران بنفس المرحلة الزمنية . وعادة ما يهدف الكاتب من وراء ذلك الى ابراز الفروق والتناقض بين المجموعتين مما ينتج عنه تحول بعض الشخصيات من مواقفها وابتعادها عن جذورها الاجتماعية . وفى عملية التحول هذه يبرز التحليل من خلال بناء الشخصيات . ولعله من الصور الثابتة فى الرواية التونسية ذلك البعد الذى يتركز فى اختيار شخصيات تنتمى الى فضاء القرية واخرى الى فضاء المدينة يدفع الكاتب ببعض شخصيات المجموعة الاولى لكى يضعها فى مواجهة اخرى كائنة فى فضاء المدينة . ومن وراء ثنائية « القرية / المدينة » تبرز ثنائيات اخرى متعددة من نوع : الطبيب / الشرير ، المحافظ / المنسلخ ، المتحضر / البدوى ، المثقف / الفلاح ... الخ ...

فالرواية الاجتماعية بصنفها هذين ما هى الا تطوير لمفهوم الصراع الازلى القائم على الخير / الشر والقوى / الضعيف مع اعطاء أهمية أولية لفضاء الصراع ومكوناته مما يجعل موضوع الصراع ثانويا امام تحليل البناء الاجتماعى والعلاقات بين الشخصيات .

قد لا يكون من باب الصدفة ان تكون الرواية الاجتماعية بهذه القاعدة العريضة التى تنفتح عليها من خلال اهتماماتها هى التى استقطبت اهتمام أغلب الروائيين التونسيين خاصة بعد ان انحسرت موجة «الرواية النضالية» التى تأكدت طرفيتها من خلال ارتباطها بالمرحلة التحررية . واذا كانت النماذج الاجتماعية للرواية التونسية لم تصل الى حد ابراز انماط فرعية نظرا لقلّة عدد هذه النماذج فى كل نمط من هذه الانماط وتفرّد هذه النماذج الا انه يمكن

ان نستشف الاهتمامات التالية التي قد تتجذر لدى تعطى تلك الانماط
الفرعية :

3 - 4 - 1 - 1 - النقد الاجتماعي : نقد الجوانب الاجتماعية عن طريق
تحليل وضعيات اجتماعية والصاقها بالشخص الروائية تعتبر في بدايتها
- على الاقل - في الرواية التونسية امتداد للتيار التعليمي الذي كان في بداية
القرن يكتسى صبغة ايقاظية داعية للتحويل وللتخلي عن معوقات التحول
الاجتماعي والفكري . فاذا كانت رواية « الساحرة التونسية » للصادق الرزقي
بهروبها الى مرحلة تاريخية متقدمة (نهاية العهد الحفصي) مما دفع نور الدين
بن بلقاسم الى ادخالها ضمن «الرواية الخرافية» تسعى من خلال ذلك
الهروب التاريخي الى اكساب نقدها الاجتماعي حجاب عدم المعاصرة فان ما جاء
في رواية محمد المنيف «وأخيرا تزوجتها» من سخرية من الزواج غير
المتكافئ بين بنت فقيرة وشيخ غني لا يمكن ان يحمل الا على النقد الاجتماعي
الذي يوضح موقف الكاتب من ذلك الاستغلال الذي يعتبره نموذجيا في وسطه .
كما ان وضعية التياس في «برق الليل» للبشير خريف لا تخلو من سخرية
تهكمية لبعض المفاهيم الدينية الخاطئة .

وتتعدد الامثلة لابرار التقاليد المألوفة وجوانب التخلف الاجتماعي في
الرواية التونسية الاجتماعية ولكن عادة ما تكون في شكل اشارات تهكمية
من الكاتب الى جوانب اجتماعية معينة ترتبط اما بالنظرة الدينية لبعض المفاهيم
المغلوبة او بوضع المرأة التي يريدونها متحررة ولكنها في الواقع
اما مضطهدة او مستغلة او بالعادات التي لم تعد تجد مجالا لتطبيقها بنفس
النظرة السلفية . ومثل هذا التيار النقدي الذي عرف أوجه مع مقامات بيرم
التونسي (15) بين سنتي 1936 و 1937 ما زال يتبدى في الرواية التونسية
بشكل أو بآخر حتى آخر رواية صدرت الى حد الآن وهي « مدينة الشمس
الدافئة » لمحمد الباردى حيث يبدو موقف الشباب من زيارة ضريح الولي
جد الاسرة لا يخلو من شعور بالانفصال وتهكم من معتقدات الكبار .

(15) نشرت مقامات بيرم التونسي في كل من «الشباب» و «السردوك»
سنتي 1936 - 1937 وقد تعرض لها محمد فريد غازي بالدرس والتحليل
في كتابه «القصة والرواية في تونس» (الدار التونسية للنشر
1970) .

فالتيار النقدي في الرواية الاجتماعية هو تحول عن التيار التعليمي للرواية التعليمية الايقاظية واذا كان ما ينعكس منه اليوم من نماذج في نطاق الرواية التونسية قد تخلى عن الصبغة التعليمية فانه كاتجاه نقدي اجتماعي يجد تطبيقه اكثر في الرواية السياسية التي لم تتعدد نماذجها بما فيه الكفاية لكي توضح تطور هذا التيار . بقي ان نشير الى ان الصبغة التعليمية المتحولة عن الرواية التعليمية الايقاظية نراها تبرز في نماذج الرواية الاجتماعية في شكل مواقف تسجيلية لبعض الاحداث والعادات الاجتماعية . وفي هذا الارتباط بين انماط الرواية التونسية ما يثبت صبغتها التحولية وذلك ما يعكس بداية تجذرهما الاجتماعي فهذه الانماط لم تتأت من نماذج استجلبت بكليتها بل في مقوماتها ما يدل على تحولها في بعض خصائصها من نمط روائي الى آخر .

3 - 4 - 1 - 2 - الصراع الاجتماعي : الصراع الاجتماعي في نطاق الرواية التونسية يكون بين فئات اجتماعية ذات مصالح متعارضة . ويتم هذا الصراع في نفس الفضاء وفي زمن معين . وهو صراع حول موارد العيش وتحسين الوضع الاجتماعي ويعكس التحول الفكري والاجتماعي واحيانا الخلفية التاريخية الاجتماعية للمرحلة المعروضة . وينقسم هذا الصراع الاجتماعي حسب الفضاء الذي يتم فيه : <http://Archivebelasem.com>

- الصراع الاجتماعي الريفي : وهو عادة ما يتركز حول موارد العيش (الارض والماء) ويعكس علاقات اجتماعية تنبنى أساسا على التعايش في نفس الفضاء وعلى التقارب الدموي . فالوسط فلاحي والتركيبية الاجتماعية هرمية في نطاق القرية أو الواحة تنبنى على علاقات استغلال بين ملاك الارض والخماس وعلاقات تصارع حول الارض بين الورثة والاقارب وما روايتا « الدفلة في عراجينها » للبشير خريف و « الجسد والعصا » لمحمد الهادي بن صالح الا افضل مثال على ذلك نظرا لخصوصية وسط الواحة الذي تعرضه كل منهما . اذا كانت رواية عبد القادر بن الشيخ « ونصيب من الافق » قد تجاوزت مشكل الصراع حول الارض الى الماء كما تم ذلك في « الجسد والعصا » فان ما تنتهي اليه كل من هاتين الروايتين هو ان البقاء في الريف لا يكون للاقوى بل للضعف اما الاقوى فهو الذي يهاجر الى المدينة وهي نتيجة تتجاوزان بها نهاية الصراع الذي يتم حول الارض والماء في « الدفلة في عراجينها » حيث يكون البقاء للاخبت والاقدر على التأقلم مع معطيات وضعه

الاجتماعى . وفكرة الهجرة من الريف الى المدينة نتيجة لوضعيات الصراع التى تبرز حول موارد العيش فى فترات الازمات الطبيعية أو الاجتماعية (كما فى «واحة بلا ظل» لعمر بن سالم مثلا) تكاد تكون هى المسيطرة على الرواية التونسية التى تتخذ من الفضاء الريفى الاجتماعى مجالا لها . وهو ما يدفع بالشخصيات الريفية القادرة على التحول والسعى الى تغيير وضعها الى الانبتات والشعور بمفارقات مجتمعا وظروفها الشخصية .

وإذا كان الاهتمام الاول للرواية الاجتماعية التونسية التى اتخذت فضاء الريف مجالا لها هو الصراع حول موارد العيش والارث فان ما انفتحت عليه بعض نماذج هذه الرواية من صراع حول المظهر الاجتماعى من خلال الوصول الى مراكز السلطة المحلية أو الجهوية حول موضوع الصراع من الارض والماء الى المركز الاجتماعى والاقتصادى واصبح الشخص الذى كان يقاس بما يملكه من أرض يقاس بما هو قادر على احداثه من تأثير سياسى (أو دينى) من خلال علاقاته الدموية / السياسية / الاقتصادية وفى ذلك تحول عن المجتمع الزراعى التقليدى الى مجمع الريف الذى انفتحت دورته الاقتصادية على المدينة من خلال عمليتى الاستهلاك والتصدير ولعل فى رواية «واحة بلا ظل» لعمر بن سالم بداية تحسّس لهذا التحول الاجتماعى الذى هو فى أساسه تحول عن طبيعة المشاكل الاجتماعية ناتج عن تحول فى الوظيفة الاجتماعية للريف فالريف لم يبق ذلك المستودع الذى يجد فيه الملاك القار فى المدينة أو السلطة (كما فى «الجسد والعصا») موردا قارا اضافيا بل اصبح الريف احتياطيا ضخما للشباب الذى تم تدجينه فى المدينة لكى يكتشف بعد ذلك انقطاعه عن جذوره القروية الفلاحية مما يدفعه الى التأقلم من جديد وذلك لا يتم الا باحداث هياكل اجتماعية جديدة تستوعبه من خلال توظيفه السياسى أو الاقتصادى . ويبدو ان طبيعة هذا التحول الذى جاء نتيجة ما عرفه المجتمع من تغييرات اجتماعية يمكن ان تفتح امام الرواية التونسية مجالات كثيرة تخرج عن النماذج التقليدية التى تتركز حول صراع الارض والميراث («المنبت») لعبد المجيد عطية و«الدفلة فى عراجينها» للبشير خريف) وحول الزواج من ابنة العم («المنعرج» لمصطفى الفارسى) .

فالوضعيات الصراعية الريفية أقبلت عليها الرواية التونسية بقدر أكبر من القصة القصيرة نظرا لضرورة التحليل التى لا توفرها القصة القصيرة ولطبيعة العلاقات الاجتماعية التى تتجاوز النطاق الفردى - وهو ما يستجيب أكثر

لمقومات القصة القصيرة - وتنقّج عن مشاكل تطويرية في نموها بتباطيء يعكس ببطء التحول الاجتماعي الريفي .

- الصراع الاجتماعي في المدينة : يتركز الصراع الاجتماعي في نطاق فضاء المدينة من خلال الرواية التونسية حول السعى الى تحسين المركز الاجتماعي وتحسين مستوى العيش وهو عادة ما يقترن بشخصيات قلقة نفسيا اما لجوع في تفكيرها وامكانياتها وفي هذه الحالة تكون الشخصية متحولة عن فضاء الريف تبحث في المدينة عن ذلك الفردوس المفقود او هي شخصيات اصابتها التخمّة من جراء الفراغ الذي يشتمل عليه وضعها .

اما الشخصيات التي تعيش تخمة وضعها وافكارها فأول ما برزت في شخصية المرأة التي ينحصر فضاؤها في الجدران الاربعة التي تحد تفكيرها ونشاطها اليومي (كما في « برث الليل » للبشير خريف أو « في بيت العنكبوت » لمحمد الهادي بن صالح) أو المرأة التي تكتشف ان السجن الاجتماعي الذي يضرب حولها بعد ان تتعلم وتتوظف لا يختلف في شيء عن ذلك السجن القديم الذي كان يتمثل في بقائها في المنزل (كما في « المنعرج » لمصطفى الفارسي) . وفي هذا النطاق تبقى رواية « افلاس » للبشير خريف متفردة في الشاب الذي رغم تشبعه العلمي التقليدي يجد نفسه مدفوعا وراء رغباته في مسارات لم يفتحها لنفسه الا لاحساسه بما في حياته من رتابة وتخمّة (I6) .

ولعل ما يسيطر أكثر على شخصيات الرواية الاجتماعية التونسية هو سعيها وراء تحسين مستوى العيش والانفلات من الروابط الاجتماعية العائلية التي تشدها الى فضاء القرية وفي هذه الحالة تكون الشخصية النموذجية التي استهوت الكثير من الكتاب التونسيين هي شخصية المعلم او الاستاذ الذي ينحدر من وسط ريفي والذي يجد في فضاء المدينة ذلك الانبتات الذي يضعه امام معادلات صعبة يستغلها الكاتب لكي يعكس من ورائها البعد الاجتماعي

(I6) رواية « إفلاس » للبشير خريف نشرتها في مجلة « الفكر » سنة 1959 وتم طبعها عن الشركة التونسية لفنون الرسم سنة 1981 بعنوان « حبك درباني » .

للفترة التاريخية التي تعيشها شخصيته الرئيسية في الرواية فاذا كانت كل من « المنبت » لعبد المجية عطية و « المنعرج » لمصطفى الفارس تعكسان هذه الشخصية المتذبذبة القلقة فان كلا من « البحر ينشر ألواح » لمحمد صالح الجابري و « فى بيت العنكبوت » لمحمد الهادى بن صالح تعكسان مثل هذه الشخصية القلقة التي تنتهى بكل بساطة الى ان تدرك ان وضعيتها الاجتماعية مستحيلة اذ ان المظهر الاجتماعى الذى اكتسبته ليس اكثر من واجهة غير قادرة على اذابة كل المخلفات التي تحملها تلك الشخصية فى تفكيرها وفى انتماؤها الطبقي والعائلي كما ان ذلك المظهر غير قادر على تأصيلها فى الوضع الذى طالما نشدته . وفى مثل هذه الوضعيات تنتهى الشخصيات القلقة الى وضعيات يائسة أو عبثية تستشف من ورائها خيبة مسعاها وتعمق فى تفكيرها الاحباط واليأس .

ولعل الشخصية الرئيسية فى « دهايز الليل » لحسن نصر من اكثر هذه الشخصيات احباطا وقدرة على التلذذ بتعاستها ويأسها وما النهاية العبثية التي ارتآها لها الكاتب (سقوطها فى البئر غفلة ثم موتها) الا شعور من الكاتب بمجانية وجود مثل هذه الشخصية .

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

وطبعا مثل هذه النهاية الاحباطية للشخصيات المتفردة فى الرواية الاجتماعية التونسية ليست الوحيدة التي توضح مدى قساوة الوضع الاجتماعى الذى يمكن ان يواجهه الفرد فى المدينة وان تميزت مثل هذه الشخصيات بالصبغة الاحباطية فلان وجودها منذ البداية قد انبنى على معادلة مختلفة اذ ان الكاتب يثقلها بكل ما يمكن ان تجره وراءها من بقايا اجتماعية ومن علاقات عائلية ثقيلة ثم يلقي بها فى خضم الصراع اليومي من اجل فرض الوجود وتحسين المستوى ويكون يدرك مسبقا ان كل تلك المعوقات لن تعمل الا على اغراقها فى الانحناء على وجودها خاصة ان الكاتب يسلحها بقدر ما من الوعى الذى يساعدها على اكتشاف تناقضات وضعها . وطبيعى ان تنتهى مثل هذه الشخصيات الى الاحباط والى اليأس . وبجانب هذه الشخصيات المحبطة هناك اخرى لا تملك ذلك القدر من الوعى والثقافة اللذين تتسلح بهما هذه الشخصيات وما رواية محمد رشاد الحمزاوى « بودودة مات » الا نشدان للبطولة الشعبية فى شخصية « بودودة » الذى يعكس

الطبية والسذاجة والانسحاق الاجتماعى ورغم ذلك فهو ادانة للهرمية الاستغلالية فى المجتمع الذى يعيش فيه يقف مصلوبا فوق خشبته شاهدا على ذلك الاختلال الاجتماعى الذى يوحد الجوع والبؤساء وراه .

3 - 4 - 2 - **النزوح من القرية الى المدينة :** النزوح من القرية الى المدينة عولج على الاقل فى الروايات الثلاث التالية : « نصيبى من الافق » و « فى بيت العنكبوت » و « البحر ينشر ألواح » ولعل أهم ما فى ظاهرة النزوح هو ذلك التحول من فضاء الريف الى فضاء آخر اشبه ما يكون بفضاء ريفى يقع قرب المدينة . ويكون الجانب الذى يلاحظ عليه الكاتب فى هذه الحالة هو ذلك الانصهار الجديد خضوعا لمعطيات الفضاء الجديد بما فى ذلك من تأقلم مع ضرورة هذا الفضاء والتأثير عليه احيانا (البحر ينشر ألوحه) وفى الحالة التى يبقى فيها الفضاء بتمامه فى نطاق المدينة فان ضرورة التأقلم والتكيف مع الوسط الجديد تكون أكبر (فى بيت العنكبوت ، نصيبى من الافق) . واذا تركنا جانبا تلك الشخصية الرئيسية المثقفة والواعية التى يريد الكاتب من خلالها ابراز أوجه التناقض بين الجذور الريفية لتلك الطبقات الشعبية التى تتراكم عشوائية حول المدينة او فى بعض احيائها الشعبية وبين الجانب الغربى من حياة المدينة وما يقتضيه من كد كل يسعى وراء ضرورياته فان الناحية التسجيلية الوصفية التى تكون على هامش حياة الشخصية الرئيسية ومشاكلها تبدى لنا تلك الطبقات الاجتماعية ذات الجذور والانتماءات المتعددة فى حالة انصهار لكى تتعلم من جديد كيف تصنع فضاءها الاجتماعى متخيلة عن السلبي من موروثاتها مقتبسة - بصعوبة وذكاء وتحريف - بعض ما يعكسه الحياة الجديدة فى نطاق المدينة. وظاهرة النزوح من وجهتها هذه تسجيل للكثافة السكانية والمشاكل الاجتماعية التى تصاحبها وتتأى أهميتها من دراسة التحول الجماعى الذى تخضع له تلك المجموعة المختلفة الجذور والمشارب . واذا كانت ظاهرة النزوح تلح وتؤكد على عدم استجابة الريف كمجال حيوى لمتطلبات اولئك الافراد فانها فى نفس الوقت تكشف عن مدى عدم صلاحية ذلك الوسط الجديد للاستجابة لمتطلبات حياتية هى أقل طموحا من تلك التى كانت تعمر افكار تلك الشخصيات قبل تحولها .

وظاهرة النزوح كظاهرة اجتماعية تعتبر من مشاكل العصر الحالى الناتجة عن استقطاب المدن والضواحي الضخمة للمجموعات المنتجة وهى وجه للحضارة

الاوروبية الصناعية قل أن تخلو منها الرواية في العالم الثالث . ولعل خصوصية بعض جوانبها في نطاق الرواية التونسية تتمثل في ذلك الربط الواعي بين الجذور الريفية للشخصيات وطموحاتها التحويلية التي تدفع بها الى التحول الى فضاء المدينة وما يصيبها هناك من خيبة أمل وانكسار عندما تكتشف أن حدود طموحاتها أضيق من أن تسمح لها بالقوت الشريف . وإذا كانت الشخصيات الرئيسية في مثل هذا النمط من الروايات تعكس احباطا وحيرة وجودية فإن خيبتها ليست الا رمزا لكل ما تعانيه المجموعة من انكسار ينتج عن الهوة القائمة بين الآمال والواقع وانطلاقا من هذا البعد الاجتماعي الجماعي لمجموعة المنسحقين تحدث البعض (I7) عن « النزعة الواقعية في القصة التونسية » ورغم كل ما في مفهوم الواقعية من التباس وإمكانية مناقشة - خاصة في ميدان القصة - إلا أن الواقعية التي ارادها الجابري هنا هي تلك « التي تسمو بالواقع وتحاول إعادة صياغته » وإذا اعتبر البشير خريف أكبر قصاصي هذه النزعة فذلك لاتجاه كتاباته الى الوسط الشعبي وإلى مشكلات مجتمعه ولكن البشير خريف ليس الوحيد الذي يمكن أن تلصق به هذه الصفة فمحيى الدين بن خليفة في كل من « الرماد » و « سوق الكلاب » ينطبق عليه هذا الوصف وكذلك محمد الهادي بن صالح في « في بيت العنكبوت » وفي « الحركة وانتكاس الشمس » . وليس من باب التجاوز أن نضيف أيضا عمر بن سالم في « واحة بلا ظل » و « دائرة الاختناق » وتمتد القائمة لكي نكتشف أن البعد الاجتماعي في القصة والرواية في تونس يكاد يرادف مفهوم الواقعية وإذا كانت الواقعية في بعض تفريعاتها تحمل مفهوم النقدية الاجتماعية فإن « الواقعية النقدية الاجتماعية » هي تلك التي تعكسها الرواية التونسية من خلال نماذجها الاجتماعية .

هذه الواقعية الاجتماعية التي يريدها كتابها في نطاق الرواية التونسية أن تكون نقدية قد تتعثر أحيانا في السردية التقريرية لكي تبقى في مستوى التسجيلية الحديثة أو الوصفية كما في كتابات محيي الدين بن خليفة ومحمد بن عاشور (« البحث عن الاوراق » 1974) وظاهرة التسجيلية هذه التي أشرنا إليها في نطاق الرواية النضالية هي امتداد لظاهرة المقال السياسي أو

(I7) محمد صالح الجابري : اتجاهات القصة التونسية - « الاقلام » العراق - سنة 13 - عدد 8 - أيار 1978 .

الاجتماعي كما انعكست من خلال الرواية التعليمية واذا وجدنا بصماتها في الرواية الاجتماعية فلانها كتنقية للكتابة النثرية تسربت الى الصنف الروائي متحولة من « نوع المقال » الى « نوع القصة » لكن دون ان تصبح من مقوماتها الفنية كما كان ذلك في حالة « الحوار » مثلا الذي استوعبته القصة بعد ان اثبت وجوده في نطاق « المسرحية » ولعل افضل مثال للناحية التسجيلية يبدو في « رواية الرحلة » كما سنستعرضها .

3 - 5 - رواية الرحلة : الرحلة حسب منزلتها التصنيفية تعتبر صنفا من اصناف القصة باعتبارها نوعا أدبيا واذا كانت الرحلة في مفهومها العربي القديم تعكس عدة اهتمامات أهمها الجانب الاطلاعي باعتبارها فرصة لكتابتها لخبرة الفضاء الذي ينتقل فيه ولدراسة سكانه وخصائصه . وكانت أهم الرحلات في العهد العربي الاسلامي دراسية أو سياسية (ابن فضلان) أو دينية (ابن جبير) الا ان الجانب الادبي فيها يبقى دائما خصوصيا . وفي نطاق المفهوم الاوروبي للرحلة أصبحت الناحية الاستكشافية هي الغالبة الى ان تمكنت القوات الاستعمارية من افريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية وعندها اكتسبت الرحلة الاوروبية المفهوم الاطلاعي الخصوصي الذي كان يحرك العديد من علماء وأدباء المغرب والاندلس كما حرك أمثالهم من البلدان الاسلامية نحو عاصمة الخلافة .

تتميز الرحلة بالناحية التسجيلية وهي تتراوح بين ما هو شامل داخل في نظام اقتصاد البلد وعاداته وطوائفه وبين ما هو خصوصي ذاتي مما حدث لصاحب الرحلة وما جرى له من مقابلات ومساجلات ومشاهدات ومصاعب وأمراض ومغامرات .

ورواية الرحلة التي نعتبرها هنا منتمية الى نوع القصة كنمط من انماط الرواية منحدره من هذا الصنف القصصي متحولة عن صنف « الرحلة » تختص باهتمامها بالجانب الذاتي متجاوزة الناحية التعليمية الاطلاعية التي قد تحملها « الرحلة التقليدية » وما خصوصيتها وذاتية احداثها في ارتباطها بمواقف كاتبها تجاه مشاهداته وتحركاته في الفضاء الا تلك الناحية التي اكتسبتها من التحليل الادبي وهو ما ادخلها في نطاق الرواية الادبية . ففي هذه الرحلة الادبية كل مقومات الرواية من شخصيات وزمن ومكان ترتبط فيه الاحداث بالشخصيات من خلال تصرفاتها وترتبط الشخصيات في ما بينها

من خلال علاقات يسعى كاتب الرواية - الرحلة الى ان تمر دائما من خلال ادراكه لها ووعيه بحدوثها . وأمثال هذه «الرواية الرحلة» قليلة النماذج في نطاق الرواية التونسية لكنها تقترون باسمين من أهم من طبع مرحلة الثلاثينات بانتاجه وهما علي الدوعاجي ومحمود بيرم التونسي .

فرواية علي الدوعاجي « جولة بين حانات البحر المتوسط » هي أقرب ما تكون لمجموعة من المذكرات كتبها الدوعاجي بعد رحلة قام بها سنة 1933 . وعن هذه الرواية يقول عبد الكبير خطيبي : « ان كاتبها يجمع بين الاسلوب التقليدي للرحلات والاستطلاع الصحفي ... » (18) . واذا كان كاتب الرحلة في حاجة الى جمع معلومات ما فان الدوعاجي قد جمع جغرافية جسد المرأة الاوروبية في رحلته هذه . واذا كان في حاجة الى البحث عن العادات والخصائص فهو قد سعى الى ذلك من خلال النماذج البشرية التي تعرض لها . وتتأتى أهمية رواية « جولة بين حانات البحر المتوسط » من اعتبارها أول رواية فنية تونسية تنشر (على شكل فصول صحافية) سنة 1935 . وفي نفس الفترة تقريبا كان محمود بيرم التونسي قد شرع في نشر « مذكرات المنفى » (19) لكي يعتنى بالجانب التحليلي لنفسيات الشخصيات ومدى انسجام ذلك مع نظراته اليهم ومع ما تعكسه مظاهرهم .

أهم ميزة للرواية الرحلة كما تتضح من خلال هذين النموذجين الوحيديين لها في الرواية التونسية هي طرافة الشخصيات وما يسعى الكاتب الى اضافته عليها من ظرافة وفكاهة تنبعان من التناقض الذي يقوم بين تصرفات الشخصية ومظهرها أو بين تصرفاتها ومتطلبات الوضع . ولعل « رواية الرحلة » في

(18) عبد الكبير الخطيبي : في الكتابة والتجربة - ص 68 - دار العودة - بيروت ، 1980 .

(19) نشر جزء منها في جريدة « الزمان » ابتداء من ماي 1933 تحت عنوان « مرسيليا » ثم نشر في جريدة « الشباب » الجزء الآخر من اكتوبر 1936 الى مارس 1937 . جمعت كل هذه المذكرات ونشرت عن الشركة القومية للنشر والتوزيع سنة 1962 بعنوان « مذكرات بيرم التونسي في المنفى » .

نطاق الرواية التونسية هي النافذة الوحيدة التي تفتح بها على الفكاكة متخلصة من جديتها .

وما المظهر التسجيلي هنا الا سعي من الكاتب الى عدم اقحام شخصه في الاحداث (خاصة عند بيرم التونسي) رغم ان وجوده ضروري لدفعها الى الامام .

« رواية الرحلة » في إنبائها عن شخصية أساسية (شخصية صاحب الرحلة) تقترب كثيرا من « رواية الشخصية » في نمطية احداثها وارتباطها بتحركات شخصية رئيسية ولكن في نموذجها اللذين برزت بهما في نطاق الرواية التونسية يسعى صاحب الرحلة الى ان يعرض النماذج البشرية التي تقع تحت ادراك حواسه أكثر مما يتحدث عن خصوصياته النفسية أو الحديثة. ومن هنا كان وصف « عين الكاميرا » الذي وصف به محمد فريد غازي « محمود بيرم التونسي » في مذكراته ينطبق على هذا النمط من الرواية لكي يبرز خصوصيتها التسجيلية ولكن هذه التسجيلية انتقائية وهادفة لابرار نواحي الطرافة والفكاكة .

في تفردا بالشخصية الرئيسية المتكلمة تبدو « رواية الرحلة » أقرب ما تكون من السيرة الذاتية (كما في « سبعون » لخائيل نعيمة و « الايام » لطف حسين) لكن عندما نفحص الاحداث التي تعرض في نطاق النموذجين السالفين نجد ان الجانب الذاتي من حياة الشخصية المتحدثة صاحبة الرحلة يكاد ينطمس امام كل النماذج البشرية والوضعيات المتعلقة بها التي يعرضها الكاتب .

تتميز رواية الرحلة بزمان وفضاء متحول ومن خلال تحول الفضاء تدخل الشخصيات الجديدة في حيز ادراك الكاتب فالزمن هنا زمانان : زمن خارجي مرتبط ببداية الرحلة ونهايتها وازمنة ثانوية فرعية خاصة بكل شخصية على حدة تتمطط بحسب الاهمية التي تتراعى لكاتب الرحلة وحسب أهمية الاحداث التي يراها مناسبة لاصاقها بتلك الشخصية . وتكون تلك الشخصيات متنافرة ومتباعدة لا علاقة تقوم بينها الا من خلال العلاقة التي تشدها الى صاحب الرحلة اي من خلال العلاقات التي يعيها ويراها جديرة بالابرار وبذلك تبقى « رواية الرحلة » مجرد « وجهة نظر » من زاوية معينة تتكيف بمزاج الكاتب وثقافته وانسجام الاحداث مع تفكيره واختلاطها بحياته.

تبقى « رواية الرحلة » كما جسمتها مرحلة الثلاثينات في الرواية التونسية حلقة متفردة لم تجد صداها في ما كتب بعدها في ميدان القصة وكانها مجتثة من التقاليد القصصية أو كان وظيفتها الاطلاعية / التحليلية لم تعد تجد صدى في نطاق الكتابة القصصية رغم تأصل هذا الصنف القصصى في الادبي العربي القديم (ابتداء من رسالة الغفران الى صفوة الاعتبار) . وما عرفه هذا الصنف الادبي من تحول خلال المرحلة الاسلامية العربية من الادب العربي جدير بان يدرس على حدة لكي تتضح ميزات الرحلة بحسب اهدافها وفضائها وشخصية كاتبها ولعل في ذلك ما يوضح توقف نموها (كما هو الامر بالنسبة للمقامة) عند مرحلة معينة في حين ان انفتاحها يكسبها صفة تحولية نادرة الوجود في نطاق الاصناف القصصية الاخرى .

3- 5 - **الرواية الذهنية :** قوامها الفكرة والكلمة شخصياتها محض تصور ترمز للخير والشر والعمل والحياة والسعى واكتشاف لذة البحث والانجاز . زمنها زمن خيالي لا يرتبط بأى علامة في نطاق الواقع المكان مجرد افتراض لا ضرورة لوجوده الا في نطاق ضرورة الحركة . الكل في الرواية الذهنية كلمة ورمز وفكرة . لا وجود لمثل لهذه التسمية التي أردنا بها هنا كتابات محمود المسعدي الا ما عرف به مسرح توفيق الحكيم في بعض مراحلها بانه « مسرح ذهني » .

الرواية الذهنية كما تتراءى من خلال الآثار الثلاثة لمحمود المسعدي « السد » (1957) و « مولد النسيان » (1974) و « حدث أبو هريرة قال ... » (1973) (20) تبقى ظاهرة متفردة في الرواية التونسية وذلك بانقطاعها المرحلي اذ هي لم تسبق بمحاولات في هذا السياق كما انها لم تتجاوز شخصية المسعدي في نماذجها المتوفرة اليوم في نطاق الرواية التونسية .

اذا كان « السد » نظرا لبنائه الحوارى المسرحى قد اعتبر مسرحية أكثر مما هو قصة اذ الحركة فيه لا تأتي الا عن طريق الكلمة التي تصدر عن الشخصيات

(20) « حدث أبو هريرة قال ... » و « مولد النسيان » نشرت أجزاء منهما في مجلة « المباحث » سنة 1944 . ولكن طبع الروايتين لم يتم الا خلال سنتي 1973 و 1974 .

فانه لا يمكن ان ننكر البناء القصصى الروائى الذى يتوفر فى كل من الاثرين الآخرين .

ولعله لم تتوفر فى الرواية التونسية محاولة لربط الشكل الروائى بالتراث الادبى النثرى العربى كما يتضح ذلك من خلال سعي المسعدى الى ايجاد روابط عضوية بين ما يكتبه وبين ما عرف فى الادب العربى القديم « بالخبر » أو « بالحدث » وهما صنفان أدبيان يمكن ان يوضعا داخل نوع القصة وقد اثبت المسعدى من خلال « مولد النسيان » و « حدث أبو هريرة قال ... » ان المرور من هذين الصنفين القصصيين القديمين فى الادب العربى الى صنف « الرواية » يمكن ان يتم بتطويع للجانب التراثى لكى يستجيب لهدفية ما أرادها الكاتب هنا فلسفية ذهنية تقوم على الرمز وتتجاوز نطاق الواقعية الى فضاء انساني فكرى أرحب يعكس الوجود البشرى وملابساته . وبقطع النظر عن لغة المسعدى التى تعتبر ظاهرة أدبية فى حد ذاتها - وقد كتب حولها الكثير - وفى استعمال المسعدى لاسماء تاريخية متحولة عن شخصياتها الاصلية أو مشابهة لما عرف فى نطاق التراث لكنها جاءت مغايرة فان ما يتوفر من تقنية روائية فى كل من « مولد النسيان » و « حدث أبو هريرة قال ... » يدخل فى نطاق « قصة الشخصية » مع سمات تقارب مع « السيرة » (غير البطولية) و « الرحلة » (الذهنية / الوجودية) . فالشخصيات لا وجود لها خارج حركتها وافكارها وما حركاتها الا دفع لافكارها التى هى فى الواقع رموز لما يمكن ان يحدث للانسان بصفة عامة عندما يضع أفكاره فى مستوى التساؤل الوجودى . واذا كانت أهمية الزمان والمكان ثانوية فى مثل هذه الروايات الذهنية فلان ما تحمله الشخصيات وما تعبر عنه من أفكار يقدمه الكاتب باعتباره حالات شمولية تتخطى الحدود وتسعى الى ان تضع الانسان فى معادلة تتراوح حدودها بين الانجاز والحيلة وبين الانا والوجود .

فالرواية الذهنية كما برزت فى كتابات محمود المسعدى تبدو تفردا فى اهتمامات محتواها تتجاوز الانسان العادى لكى تضع قانون الوجود وتبحث هدفية وحدوده وهى فى مستوى اهتمامات تقنياتها سعى الى البحث عن الجذور العربية من خلال اصناف أخرى من القصة يمكن أن نجد فيها الجواب عن مدى تراثية هذا النوع الادبى فى واقعنا المعاصر .

4 - خاتمة : اذا كنت فى نطاق هذه الدراسة قد حاولت أن أميز الرواية كصنف أدبى فى نطاق نوع « القصة » كما تراءى لى من خلال الرواية التونسية فجدير بالملاحظة الإشارة الى ان الاصناف الادبية فى نطاق « القصة » لم تكن دائما بهذه الدرجة من الوضوح التى حاولت ان اجعلها عليها . وكل من حاول دراسة أوليات القصة فى العالم العربى يدرك كم يكون من الصعب ان تقبل آثار لا تتجاوز صفحاتها العشرة باعتبارها رواية ولكن البداية كانت هكذا . واذا كانت التقسيمات التى وضعت الرواية التونسية جاءت فى أغلبها فى نطاق دراسة مراحل القصة بصفة عامة (ابتداء من محمد فريد غازى وانتهاء عند محمد صالح الجابرى) فان هذه التقسيمات قد اتجهت وجهة مرحلية تعتمد الاحداث أو كثافة الانتاج لذلك كان هناك من أرتأى أن يتوقف عند السنوات الثلاثين (محمد صالح الجابرى : أوليات القصة التونسية) وكان هناك من بدا بمرحلة الاستقلال معتبرا كل ما جاء قبل ذلك غير ذى ارتباط بالمرحلة التى يدرسها (صالح القرماوى) : القصة فى تونس منذ الاستقلال من خلال المجلات التونسية . وعندما حاول عزالدين المدنى ان يبرز مفهوم الاجيال فى كتابة القصة والرواية (عزالدين المدنى : علامات على طريق القصة والرواية) وجد نفسه لا يستطيع ان يذهب الى أبعد من « الرواد » والذين جاؤوا بعدهم وكانت محاولات نورالدين بن بلقاسم أكثر اتجاهها نحو التصنيف من خلال كتاباته فى مجلة « قصص » ثم مجلة « الفكر » لكن تقسيمه ما زال فى حاجة الى الكثير من الضبط لكى نخرج من زمرة ما سماه « بالرواية الحديثة » الانماط المتعددة التى برزت فى انتاج السبعينات .

وكان ما سعت اليه هنا هو ضبط منهجية تصنيفية تضع الصنف الروائى فى موقعه من بين الاصناف القصصية الأخرى وتمكن من التفتن الى الصفة التحولية للرواية التونسية والى استيعابها لخصائص بعض الاصناف القصصية الأخرى مما يمكن فى النهاية من وضع ملاحظات حول تطورية الرواية التونسية ومدى تجذرهما التأسلى أو اقتباساتها التطعيمية .

فالرواية الايقاظية ثم الرواية التعليمية برزتا فى ظروف تاريخية اقترنت فى كامل العالم العربى بمرحلة النهضة الحديثة والتفتيح على الغرب وكان للترجمة والاقتباس دور لا ينكر فى ادخال مفهوم الرواية الى الادب العربى ثم الى فرضه كتعبير نثرى فى نطاق ما كان يسمى « قصة » وذلك فى مرحلة

تعايشية مع المقال السياسى الاجتماعى والمقامة النقدية وطبيعى ان تتأثر الرواية فى هذه المرحلة بالصبغة الخطابية التعليمية التلقينية . وان كانت الرواية التعليمية قد عرفت التحول الاعمق من غيرها لكى تعطى الرواية التاريخية ثم تركت بصماتها التسجيلية فى الرواية الاجتماعية فان الرواية النضالية التى جاءت نتيجة معطيات سياسية مغايرة قد اخذت من « الرواية التاريخية » صفتها البطولية فى ترتيب الشخصيات من خلال ابراز الشخصية الرئيسية وجعل الاحداث تدور حول « الحدث النضالى » الذى يلتقى فى زمن شخصيته الرئيسية وفى فضاءها مع الزمن التاريخى (الحديث) ومع الفضاء الذى وقعت فيه الاحداث التاريخية الواقعية وكانت الرواية الاجتماعية تطورا للمقال النقدى الاجتماعى والسياسى تحمل جوانب النقد وجوانب تسجيل الاحداث وابراز خصائص المناطق الطبيعية والتجمعات البشرية وتعكس الاحداث الاجتماعية مستجيبة بذلك لخصائصها الاجتماعية. ومن خلال طغيانها تقلصت « المقامة » وتراجع المقال السياسى (الذى عوض بالاستطلاع الصحفى والاذاعى) . وجاءت « رواية الرحلة » جانبا شخصيا اجتماعيا فى نفس الوقت تحمل النظرة الشخصية للكاتب وتحاول ان تستعرض النماذج المتعددة التى لا تدعى لنفسها الصبغة التعليمية ولتكنها تسعى بشكل ضمنى الى الترفيه والتفكيك وبذلك عوضت فى نطاق الرواية التونسية ما عرف فى المشرق العربى (وفى مصر ولبنان على وجه الخصوص) باسم « رواية التسلية والترفيه » ولكنها كانت هنا تسلية جادة هادفة الى الغوص فى أعماق النفس البشرية واستعراض نماذجها .

واذا كانت « الرواية الذهنية » (كما هى عند محمود المسعدى) بحثا عن ربط الصلة بالجذور العربية من خلال « الخبر » و « الحدث » و « اللغة » التى تبحث عن صفاتها المعجمى فانها فى نفس الوقت تجربة جادة لتطوير التراث واخضاعه لمفهوم المعاصرة .

وبعد كل هذا تبقى الرواية التونسية فى حاجة الى المزيد من التأصل لان ما استفادته من السيرة الشعبية يكاد يكون لا شئ وما اعطته للمسرح او للاخراج التلفزيونى او السينمائى لا يكاد يتجاوز نموذجا أو اثنين . وتبقى نماذجها فى نطاق الانماط الروائية محدودة لا تتجاوز اصابع اليد ويبقى كتابها يلهثون وراء عنوان ما لكى تمر مرحلة اخرى من حياتهم قبل ان يبرز

العنوان الثانى (ولعل المسعدى والبشير خريف من اوضح الامثلة على ذلك). وقد سبق ان قلت ان ميزة الرواية التونسية فى هدفيتها وخصوصية طرحها للمشكل الذى تتعرض له واذا كانت اليوم قد وصلت الى « النمط الاجتماعى » بعد ان مرت « بالنمط التعليمى » ثم « النمط النفسالى » فان ما ينتظر من الرواية التونسية هو « النمط الاجتماعى » وتفرعه فى نطاق « النمط الصراعى » لكى تعطى الانماط الفرعية التى بدأت تبرز نماذجها من خلال اهتمامات أساسية تركزت حول التحولات الاجتماعية السياسية وسعى الفرد الى فرض وجوده والبحث عن وضع أفضل .

واذا كانت بعض الانماط قد توقف انتاجها مرحليا (كالرواية النفسالية ورواية الرحلة والرواية الذهنية) فذلك لا يعنى انها قد انتفت نهائيا من الرواية التونسية اذ يمكن ان تبرز بحسب الملابس والظروف التى تفرزها. ولعل « الرواية السياسية » هى التى قد بدأت بوادرها توحى بانبثاقها فى ظروف أصبح فيه مفهوم « البطل الايجابى » و « البطل السلبى » من المصطلحات الطاغية على الكتابات النقدية .

وفى وضع مثل هذا الذى تعرفه الرواية اليوم يكون من السخافة ان ننادى بموتها كما جاء ذلك فى الغرب ويكون اكثر سخافة ان نتنبأ بتلك الانماط التى لم تجد دورها الى الآن والتى يمكنها ان تتصدر الانتاج الروائى فى المستقبل ولا يبقى امام كاتب الرواية الا ان يكتب اكثر وما امام مصنفها الا أن ينتظر الولادة .

قابس فى أكتوبر 1981

أحمد ممو

فهرس الرواية التونسية

العنوان	المؤلف	الناشر
1 - السهرة الاخيرة في غرناطة	حسن حسنى عبدالوهاب	مجلة النهضة شمال افريقية - 1905
2 - الهيفاء وسراج الليل	محمد صالح سويسى	جريدة خير الدين - 1906
3 - محادثة بين الوطنى ودوكورنيار	سليمان الجادوى	جريدة مرشد الامة - 1906
4 - الساحرة التونسية	الصادق الرزقى	طبعة تونس - 1910
5 - دلماس	سليمان الجادوى	جريدة أبونواس - 1911
6 - الطالب المنكوب	عبد المجيد الشافعى	دار الكتب العربية - 1951
7 - السد	محمود المسعدى	الصدار التونسية للنشر - 1957
8 - سر المعركة	عبد الحميد المنيف	مطبعة النجاح - 1957
9 - وأخيرا تزوجتها	عبد الحميد المنيف	مطبعة النجاح - 1958
10 - إفلاس	البشير خريف	مجلة الفكر - 1958 1959
11 - برق الليل	البشير خريف	الشركة التونسية للنشر - 1961
12 - القلب الكبير	عبد العزيز السعداوى	الشركة التونسية للنشر والتوزيع - 1962
13 - بودودة مات	محمد رشاد الحمزاوى	الشركة التونسية للنشر والتوزيع - 1962

العنوان	المؤلف	الناشر
14 - جولة بين حانات البحر المتوسط	علي الدوعاجي	الشركة التونسية للنشر والتوزيع - 1962
15 - مذكرات المنفى	محمد بيرم التونسي	الشركة التونسية للنشر والتوزيع - 1962
16 - حليمة	محمد العروسي المطوي	دار بوسلامة للنشر - 1964
17 - زوابع الاقدار	حمودة الشريف	مطبعة الشمال - 1966
18 - المنعرج	مصطفى الفارسي	الدار التونسية للنشر - 1966
19 - التوت المر	محمد العروسي المطوي	الدار التونسية للنشر - 1967
20 - من يوميات بطل	سالم سويس	مطبعة الحضراء - 1967
21 - المنبت	عبد المجيد عطية	الشركة التونسية للنشر والتوزيع - 1967
22 - يوم من أيام زمرا	محمد صالح الجابري	الدار التونسية للنشر - 1968
23 - الدفلة في عراجينها	البشير خريف	الدار التونسية للنشر - 1969
24 - الزيتون لا يموت	عبد القادر بلحاج نصر	الشركة التونسية للنشر والتوزيع - 1969
25 - حب وثورة	عبد الرحمان عمار	الدار التونسية للنشر - 1969
26 - العدوان	عزالدين المدني	جريدة العمل الثقافي - 1969
27 - الثائر	محمد الصبحي الحاجي	الشركة التونسية للنشر والتوزيع - 1970
28 - أرجوان	محمد المختار جنات	الدار التونسية للنشر - 1970

العنوان	المؤلف	الناشر
29 - ونصيبى من الافق	عبد القادر بن الشيخ	دار سيراس للنشر - 1970
30 - التحدى	محسن بن ضياف	الشركة التونسية للتوزيع - 1972
31 - الشجرة	محيى الدين بن خليفة	المطبعة العصرية - 1972
32 - وناس	محمد الحبيب بن سالم	الشركة التونسية للتوزيع - 1973
33 - حدث أبو هريرة قال ...	محمود المسعدى	الدار التونسية للتنشر - 1973
34 - نوافذ الزمن	محمد المختار جنات	الشركة التونسية للتوزيع - 1974
35 - مولد النسيان	محمود المسعدى	الدار التونسية للتنشر - 1974
36 - البحث عن الاوراق	محمد بن عاشور	الدار التونسية للتنشر - 1974
37 - البحر ينشر الواحه	محمد صالح الجابرى	الدار العربية للكتاب - 1975
38 - عندما ينهال المطر	عبد الرحمان عمار	الدار العربية للكتاب - 1975
39 - الرماد	محيى الدين بن خليفة	المطبعة العصرية - 1975
40 - فى بيت العنكبوت	محمد الهادى بن صالح	الدار العربية للكتاب - 1976
41 - عواصف الحريف	عبد الرحمان عبيد	مطبعة الاتحاد العام التونسي للشغل - 1976
42 - سوق الكلاب	محيى الدين بن خليفة	مطبعة المعارف - سوسة - 1976

العنوان	المؤلف	الناشر
43 - يوم من العمر	محسن بن ضياف	الدار التونسية للنشر - 1977
44 - دهايز الليل	حسر نصر	منشورات الجديد - 1977
45 - أنا وهى والارض	محمد الحبيب ابراهيم	دار الكتاب - سوسة - 1978
46 - على مرقص الاشباح	محمد العابد المزالى	الشركة التونسية للتوزيع - 1978
47 - أشباح السوق	محيى الدين بن خليفة	مطبعة الشلى - سوسة - 1979
48 - واحة بلا ظل	عمر بن سالم	دار صفاء للنشر والصحافة - 1980
49 - الجسد والعصا	محمد الهادى بن صالح	دار صفاء للنشر والصحافة - 1979
50 - الحركة وانتكاس الشمس	محمد الهادى بن صالح	دار صفاء للنشر والصحافة - 1981
51 - مدينة الشمس الدافئة	محمد باردى	دار كمون - صفاقس - 1981

دراسات حول الرواية التونسية وكتابها

1 - مجلة « قصص » :

- 1 - عز الدين المدني : محمد المشرقي ، عرض وتعليق - قصص 5 - أكتوبر 1967 .
- 2 - محمد صالح الجابري : أوليات القصة التونسية (I) - قصص 7 ، أفريل 1968 .
- 2 - محمد صالح الجابري : أوليات القصة التونسية (2) - قصص 8 ، جويلية 1968 .
- 4 - محمد برادة : أربع روايات تونسية (برق الليل ، بودودة مات ، المنعرج ، التوت المر) - قصص 9 ، أكتوبر 1968 .
- 5 - محمد صالح الجابري : أوليات القصة التونسية (3) - قصص II ، أفريل 1969 .
- 6 - فوزي عبد القادر الميلادي : دراسات عن القصة التونسية المعاصرة (برق الليل) - قصص I3 ، أكتوبر 1969 .
- 7 - محمد المختار جنات : منهجية المذهب الطبيعي في القصة (التوت المر) - قصص ، جويلية 1970 .
- 8 - حسن حسني عبد الوهاب : السهرة الاخيرة في غرناطة (تعريب حمادي الساحلي) - قصص I7 ، أكتوبر 1970 .
- 9 - نور الدين بن بلقاسم : تحليل رواية ، الدثلة في عراجينها - قصص 20 ، جويلية 1971 .
- 10 - محمد الحبيب عباس : السرد القصصي وأدب القصة في تونس - قصص 20 ، جويلية 1971 .
- II - التيجاني بن سالم : الرواية القصصية - قصص 25 ، أكتوبر 1972 .
- 12 - نور الدين بن بلقاسم : الرواية التونسية (I) - قصص 29 ، أكتوبر 1973 .
- 13 - نور الدين بن بلقاسم : الرواية التونسية (2) - قصص 30 ، جانفي 1978 .

- 14- محمد صالح الجابري : نظرية القصة في الثلاثينات - قصص 31 ، جانفي 1976 .
- 15- محمد الحبيب عباس : أدب القصة في تونس - قصص 33 ، جويلية 1976 .
- 16- محمد الهادي المطوي : دراسات عن القصة التونسية (البحر ينشر ألواح - قصص 34 ، 33 ، جويلية 1977 ، واكتوبر 1976 .
- 17- أحمد ممو : دراسات عن القصة التونسية (في بيت العنكبوت) قصص 35 ، جانفي 1977 .
- 18- محمد الهادي المطوي : المحنة والابداع في قصص الحمزاوي (I) و (2) - قصص 37 و 38 ، جويلية واكتوبر 1977 .
- 19- جلول عزونة : حول مقال « أدب القصة في تونس » - قصص 40 ، أفريل 1978 .
- 20- الطيب بن عمار : الخصائص الفنية في رواية « حليلة » - قصص 44 ، أفريل 1979 .
- 21- الطاهر المناعي : دراسة تحليلية لقصص الحمزاوي - قصص 46 ، أكتوبر 1979 .
- 22- أحمد ممو : دراسات عن القصة التونسية (الجسد والعصا) - قصص 48 ، أفريل 1980 .
- 23- مصطفى مدائني : دراسة واحدة بلا ظل - قصص 47 ، أفريل 1980 .
- 24- أحمد ممو : دراسات في القصة التونسية (واحدة بلا ظل) - قصص 52 ، أفريل 1981 .

2 - مجلة « الفكر » :

- 1 - عمر فضة : قصة القصة في تونس - الفكر س 4 / ع 7 / ص 90 .
- 2 - محمد رشاد الحمزاوي : خواطر حول قصة « المنبت » - الفكر س 14 / ع 1 / ص 63 .

- 3 - محمد المصمودى : تقديم « الدفلة فى عراجينها » - الفكر
س 15 / ع 5 / ص 91 .
- 4 - جعفر ماجد : عرض كتاب القصة والرواية لمحمد فريد غازى - الفكر
س 16 / ع 6 / ص 117 .
- 5 - نور الدين بن بلقاسم : الشكل والمضمون فى أدب المسعدى - الفكر
س 17 / ع 3 / ص 28 .
- 6 - عز الدين المدنى : محمد فريد غازى : لمحة عن حياته وقائمة أولى فى
أعماله - الفكر س 17 / ع 5 / ص 54 ، س 17 / ع 6 / ص 61 ،
س 17 / ع 7 / ص 85 .
- 7 - نور الدين بن بلقاسم : القصة والرواية عند العروسى المطوى - الفكر
س 17 / ع 5 / ص 38 .
- 8 - عبد الحميد سلامة : محمد البشروش والنقد الادبى فى تونس خلال
النصف الاول من القرن - الفكر س 18 / ع 4 / ص 26 ،
س 18 / ع 5 / ص 21 .
- 9 - محمود الدرويش : الدفق الروحى فى « السد » - الفكر
س 20 / ع 10 / ص 104 .
- 10 - الحبيب بن حمودة : البطل والبنائك الفنى فى عواصف الحريف - الفكر
س 22 / ع 10 / ص 104 .
- 11 - محمد رشاد الحمزاوى : خواطر حول بعض الاحاديث من « حدث
أبو هريرة قال ... » - الفكر س 23 / ع 9 - ص / .
- 12 - مصطفى الحبيب البحرى : صالح السويسى القيروانى - الفكر
س 25 / ع 4 / ص 31 .
- 13 - محمد مختار العبيدى : مصيبة الموت أو « مولد النسيان » - الفكر
س 24 / ع 6 / ص 102 .

3 - مصادر أخرى :

1 - الفصول :

- 1 - محمد رشاد الحمزاوي : الشكل والمضمون في الرواية التونسية منذ الاستقلال الى الآن - مجلة معهد الآداب العربية للاباء البيض - عدد 123 - تونس 1969 .
 - 2 - محمد صالح المراكشي : أهم الاغراض الاجتماعية في نماذج من القصة العربية من خلال أهم المجلات والصحف - الجامعة التونسية ، تونس ، ماي 1970 ، II6 ص .
 - 3 - محمد صالح الجابري : الرواية التونسية بين الماضي والحاضر - مجلة ثقافة (بغداد) عدد 6 ، تموز 1971 .
 - 4 - نور الدين بن بلقاسم : الوجود الفردي والوجود الجماعي في القصة والرواية - الحياة الثقافية ، السنة الثانية ، سبتمبر / أكتوبر 1976 ، عدد 9 .
 - 5 - عز الدين المدني : علامات على طريق القصة والرواية في تونس - الحياة الثقافية ، عدد 1 ، أكتوبر 1977 .
 - 6 - محمد صالح الجابري : اتجاهات القصة التونسية الحديثة - الاقلام (بغداد) عدد 8 ، السنة 13 ، ايار 1978 .
- Z. RIAHI : Le roman tunisien des dix dernières années dans Actes du 1er Congrès d'étude des cultures méditerranéennes d'influence arabo - musulmane - SUEDE - 1972 - ALGER.**
- 7 - زهرة الرياحي : الرواية التونسية خلال هذه العشرية :
 - 8 - صالح القرمادي : القصة في تونس منذ الاستقلال من خلال المجلات التونسية - حويات الجامعة التونسية 1965 ، ص 75 - 132 .

2 - بيبليوغرافيا :

- 1 - بيبليوغرافيا القصة والرواية في تونس منذ الاستقلال الى اليوم : عبد الوهاب الدخلى - الحياة الثقافية ، عدد 1 ، أكتوبر 1977 .

- 2 - جوانب من الادب التونسي المعاصر : مجلة معهد الآداب العربية للاباء البيض - عرض ومتابعة من سنة 1959 الى 1977 . (تراجع في عشرون سنة من الادب التونسي لجان فونتان) .

3 - الكتب :

- 1 - محمد فريد غازي : القصة والرواية في تونس :
M. FARID GHAZI : Le roman et la nouvelle en Tunisie -
M.T.E 1970 - Tunis
- 2 - محمد الفاضل بن عاشور : الحركة الادبية والفكرية في تونس -
الدار التونسية للنشر 1972 .
- 3 - محمد صالح الجابري : القصة التونسية نشأتها وروادها - مؤسسات
بن عبد الله للنشر والتوزيع - تونس 1975 .
- 4 - جان فونتان : عشرون سنة من الادب التونسي :
J. FONTAINE : 20 ans de littérature tunisienne (1956 -
1977) M.T.E 1977 - Tunis.
- 5 - محمد صالح الجابري : دراسات في الادب التونسي - الدار العربية
للكتاب - ليبيا / تونس 1978 .
- 6 - الحفناوي الماجري : ازمة المثقف التونسي المعاصر - مطبعة الاتحاد
العام التونسي للشغل - تونس 1981 .

محمد الصالح حرز الله

البركة

الى كل الذين ناضلوا ، وما زالوا يناضلون
بصمت بعيدين عن الاضواء الكاشفة هذه
الشعلة عليها تسلط بعض الضوء ..

مدخل اول

ها هو يطلع الآن من اجل حصاد ، ومداخن مصنع في الحجار ، وآلاف
البسمات المرسومة على شفاء الاطفال وهم يرددون «البركة لم يمت» .

مدخل ثان



ولكني أسمع في الفجر الآتي
إنشاد

إنشاد

إنشاد

في غوغاء الاطفال

في منجل فلاح

في مطرقة الحداد

• إنشاد

إنشاد

إنشاد (I)

خبر :

انه لم يمت الآن

(I) مقطع من قصيدة للشاعر حمري بحري .

ولم يمت
ففى الانباء انه الآن فى المعركة



البركة حل بالقرية ..

تناقلت النساء وسكان القرية الخبر .. عمت الفرحة القلوب .. زالت
المخاوف التى تطارد السكان .. استبشروا خيرا ..

قالت العجوز فاطمة لجارتها وهى تطحن حبات من البر : يمكنك الآن ان
تفرحى بزفاف صويلح يا سالمة يا اختى .. ما دام البركة موجودا فى المنطقة
لا أحد يجرؤ على بث البلبلة والمخاوف .. يا البركة ، يا الصيد بن اللبة ..

الرحا تواصل فعلها .. هكذا مصير آلاف الرجال .. مثل حبات القمح
تماما .. ان لم يسحقوا جماعات ففرادى .. النتيجة واحدة .. من يدري
علنى أسحق اليوم أو غدا .. مسكينة خالتي فاطمة ، لا تفكر الا فى زواجي ..
هى منطقية مع نفسها .. لقد استشهد ابنها الوحيد فى احدى المشادات عن
عمر يناهز الثلاثين ، دون أن يتزوج .. هه .. ما جدوى أن أخلف ..
واليتم ؟! فكرى يا خالتي فى اليتم ..

سيل من الرصاص ينطلق فجأة .. تتوقف العجوزان عن الحديث ..
تكف الرحا عن الدوران .. يطل صويلح من كوة الغرفة .. يلمح العجوزين
تهرعان الى الداخل ..
- الطف يا رب ..

غارة .. اثنتان .. ثلاث .. دوى شديد .. أزيز طائرات .. لا شئ فى
الخارج غير المطحنة .. الرحا تواصل فعلها .. عينا صويلح لا تبرحان
المطحنة .. يتواصل القصف .. (وتريدنى خالتي أن أتزوج) فى أسفل
الوادي يلمح دخان متصاعدا ، أشجارا تحترق .. (بعد لحظات ستصير
رمادا .. قبل لحظات فقط كانت خضراء يانعة ..)

- ادخل يا صويلح .. الدنيا اشتعلت ..

(تماما مثل حبات البر التى كانت تطحنها أمى ..)

الدخان يستمر متصاعدا بلونه الارجوانى .

نعيد النداء :

- ادخل يا صويلح . القيامة قامت .

- (.....)

من داخل غرفة مظلمة ينطلق انين امرأة تعاني آلام الوضع .

- اسرعى يا فاطمة عويشة تتوجع . وينك يا البركة وينك ؟!

تتناهى الى مسمعيه انغام ناي يتنهّد بالشكوى .. امامه الصمغ يسيل
من اشجار الصنوبر دموعا :

- اكيد هذا أحد اشتباكات البركة .. متى أحقق حلمى وأكون بجانبك
يا البركة .. واشترك معك فى المعارك .. يكفينى ان احضر معركة واحدة
واموت .. انت محظوظ يا اخى اسماعيل ، وسعيد لآئك لا تبرح البركة ..
انت لا تعرف مدى معاناتى الآن .. لقد غمستم فى قلبى لهيبا متوهجا ، لا
يعادله ما اراه الآن أهامى .. عويشة تنتظرك دائما .. وتدعو لك وقت كل
صلاة .. ها هى الآن تتوجع .. انى اسمع صراخها .. اينها .. عد اليها ..
ودلنى على مكان «البركة» .. سأخلقك فى مسيرتك .. عديا أخى اسماعيل ..
عد .. كن على عهدك .. ألم تقل لها بأنك ستعود الى البيت .. هذا الوعد قد
حفظته عن ظهر قلب ، وتظل تردده حتى حفظته أنا الآخر :

«انتظرى ، فسوف أعود الى البيت

حيث الدفء والشوق .

انتظرى طويلا .. حيث لا خوف ولا موت .

انتظرى حينما تنهمر الامطار الكثيبة .

فى أعماق قلبك .

انتظرى حتى ينسى الآخرون .

ولا أحد ينتظر .

انتظرى فسوف أعود الى البيت .

هنا الموت يباعدنى خطوات .

- هنا العشق
- لن أبكى
- هناك التوق
- أنظر فلا أرى سواك
- رغم البعد
- رغم موتى
- سأعود الى البيت
- وأقسم .. أن أظل أحيا
- وأحبك ولن استسلم

هذا وعدك يا اسماعيل يا خويا .. أنت لا تعرف أن زوجتك تتألم الآن ..
 توشك أن تضع .. يعاودها الانين .. يتعالى صراخها .. تتوالى الغارات ..
 سرب من الطائرات يحوم حول منزلنا ، قد تودى قنبلة طائشة فتخمد
 أنفاسنا .. الموت المجاني بلا حساب هذه الايام .. فما جدوى زواجك
 ورحيلك بعد يومين فقط من الاقتران .. أنت حر ومحفوظ أيضا .. لقد
 قلت لى يوما عبارة ظلت محفورة فى قلبي وستظل الى الابد .. تلك العبارة
 قالها البركة . سمعها تنطلق صراخا من فم أحد الجنود المجهولين : «لا أستطيع
 ان اموت ، ولا يجب ، ولن اموت» وبسرعة برز من تحت الانقاض .. وتباعدت
 الحجارة التى كانت تغطيه وانبثقت من أعماقه صنوبرة ، ارتفعت وانتشرت
 اغصانها المبتهجة على قبره .. من يومها صرت اتسلل خفية كل صباح دون
 ان يرانى احد واقصد تلك الصنوبرة .. اقضى قريبا سويكات .. ارقبها
 وهى تنمو .. أتعرف يا اسماعيل ؟ انها الوحيدة التى ظلت شامخة رغم
 عشرات الغارات ، ورغم الرياح العاتية .. قيل : ان البركة صادف هذا
 الجندى فى احدى الغابات ، وضرب على اكتافه قائلا «سوف انتظر عودتك ..
 واصل المسيرة .. سنلتقى تحت الصنوبرة» .

وقيل «انه نفخ فيه من روحه» .

سأظل أرعى تلك الصنوبرة .. أسقيها .. الى أن القاك يا البركة .



سبعة عشر عاما من الانتماء لهذه الجبال والادوية والقرى المهجورة ..
للخوف واوت المتربص والمستقبل .

ها انذا - بعد هذه المدة - أفيق هاربا من الصقيع ، وسط الخرائب التى
أسرها الحزن والصقور الجائعة .

أحلام الطفولة تستيقظ الآن :

بصيد الذئاب حلمت كلما رأيت منظر الاشجار الكثيفة .. احمل بندقيتى
على كتفى والهث وراءها .. أتربص بها .. أفاجئها فى مخابئها ، فتفر هاربة ..
وأقسم أن أظل فى ملاحقتها حتى أحقق أحلام أمى .. أمى كانت فى كل
ليلة تحكى لنا عن الذئاب المفترسة التى تسلت وعمت البلد .. وعندما
سألته عن مخابئها قالت :

- لا يعرفها الصغار .

ثم أضافت .

- عندما تكبر يا صويلح ستتعلم كيف تواجهها فى مخابئها .. وتترنم
بكلام لا أفهمه :

وينك يا فارس الاحلام يا قاهر الذيب والظلام

يا الصيد بن اللة انزع عنا ذي الغمة

لم يرقنى جوابها .. ولا يروقنى فى غالب الاحيان .. لكننى أتلذذ
بنرانيهما وانا متوسد ركبتهما ، حتى يداهمنى النوم .

يأتينى فارس الاحلام .. يأخذنى معه للصيد .. نلاحق الذئاب .. نطلق
عليها ، فتتهاوى على جبهة الصخور الوعة .. تسيل الدماء .. تنحدر تتجمع
فتكون بركا .. أتأملها .. يتعالى العواء .. أهب مذعورا ، فلا أجد فارس
الاحلام .



منذ تهجيت أول كلمة فى سفر هذا الوجود .. طوقتني الوحدة والحزن
والخوف .. صار التكيف مع الواقع مفقودا .. لم يكن سهلا الجواب عن
كثير من الاسئلة .

لماذا ينظر الينا هؤلاء الاطفال الشقر نظرة التعالى والاحتقار ؟ ولم يعاملون من طرف المدرسين معاملة خاصة ؟ لماذا يعلموننا هذا الكلام الغريب الذى لا يفهمه أهلى ؟

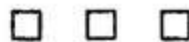
كنت أكره اللعب معهم .. وهم يتحاشون اللعب معى ومع أترابى .. نقول عنهم «فرانسييس» ويقولون عنا «بيكو» نحتقرهم دون أن نعرف داعيها لذلك .

زاد حقدى عليهم عندما استفتقت ذات يوم على منظر الغابات وهى تصرخ :

الثلوج سوداء صارت .. اختلط سوادها مع الارض ، حرثت بقذائف الهاون .. النيران تحرق البيوت بشراسة .. الرياح العاتية تصبح رمادية .. تخدش الجثث العارية المتصلبة ، المنتشرة فى مناطق قالة وسطيف وخرابة وما جاورها .. والهتاف بـ (الله أكبر) يردد رجعه وادى بوقرعة وجبال سلات وآفوزار وغابة بنى خطاب وهى تحترق ..

بكيت طوال اليوم وقررت الانقطاع عن المدرسة .. لم يسد والسداى اعتراضا .. يومها بكيت الامطار أيضا .. لم تنقطع عن البكاء يومين متتاليين .. سألت أمى عن الذين اغتالوا حلمى : حلم صيد الذئاب . قالت :

– الذئاب تخاف من الغابات ، وتخاف المباغثة .. لم أفهم .. لكن حقدى ازداد توهجا .



أوجاع عويشة المتضاعفة ، وحركات أمى القلقة ، وحقدى المتوهج تعجل فى سفرى ، كما سافر قبل شباب «أولاد عبد الله» الى حيث فارسها البركة .

لن أبقى طويلا .. سأنتظر ريثما تسكن آلام عويشة وتهدا ثائرة المعركة .. سأحمل الخبر الى أخى اسماعيل وهناك سأمتطى صهوة حصان البركة واتنقل بين «الشقفة» و «الطاهير» و «بنى عيشة» ، أحمل الرسائل والاخبار ، وأصطاد الذئاب التى تصادفنى فى الطريق .. ما جدوى أن أبقى فى بنى عيشة أسير الوحدة والخاوف والغارات المفاجئة .

- واع .. واع ، واع .

صرخات احتجاج تنطلق من فم الوليد الجديد ، تتبعها زغرودتان ، ثم خروج سالمة مهرولة مستبشرة :

- ولد !! ولد !! يا صويلح !!

حانت لحظة الانعتاق . ابتسمت ثم انطلقت منى صرخة :

- انا الذى سسياه .. لقد اخترت له التسمية وانطلقت خارج البيت لافسح المجال للمهنئات .



ها أنذا أتححرر من «أولاد عبد الله» .. وحيدا أتسلل الى وادى بوقرعة ..
أطير فى الهواء وأغنى .. تسبقنى أحلامي ، منحدرًا فى سفوح بنى خطاب ،
بين الغابات واثبا كارنب هراب .

ARCHIVE

- سافاجى، أخى اسماعيل بالخبر .
تحت المطر والقصف أسير محتفيا بالاشجار العارية .. أهرول تارة ..
وابطىء أخرى . تغزو سمعى أصوات الذئاب الآتية من بعيد .. وأمامى صورة
البركة ممتطيا صهوة جواده ، مرتديا ثبانه الرمادى المعتاد ، عيناه المخيفتان
وشقرته المتميزة . الحلم ينمو ويتعاظم وتبدأ أولى الرعشات .

- سافاجئه بالخبر .. أقول انى سميته «المهدى» .. سيكون فرحه عظيما

أصعد الجبل بصعوبة .. يداهنى التعب .. أبحث عن مخبأ للراحة ..
تتحول الشجيرات العارية الى أشباح .. تحتجب الرؤية .. لا يمكن مواصلة
السير .. سأجد المكان المناسب للاحتماء .. تزداد دقات القلب خوف
الانكشاف .. أحرك أصابع قدمي داخل الحذاء بصعوبة ، خوف التشنج ..
سائل لزج أحسه يتنقل داخل الحذاء .. يثقل خطواتي .. الصمت يلف
المكان .. تزداد الرعشة .. فجأة انزلق وأسقط .. تنجر يداي بحثا عن
شئ تتعلقان به .. تنسحبان ، تصطدمان .. بالاحجار الناتئة .. يتمزق
جلد كفى .

لم أدركم مضى من الوقت . افقت فوجدت نفسى محتضنا صنوبرة صغيرة
الظلام حولى يلف المكان .. حاولت التحرك لم أستطع . أحسست بأعضاء
جسمى تتباعد .. كتمت أنفاسى حينما سمعت خشخشة ولغطا بيد وان لى
بعيدا .

— هناك .

فتحت عينى بصعوبة .. حاولت أن أعدل من وضعيتى .. داهمنى
الدوار .

— ها هو .

لم أعد أميز مصدر الاصوات .. أحسست أنى أرتفع واهتز كأنى على
صهوة حصان .. آه .. انه حصان البركة .. حلمى يزداد توهجا .. آه .
عظامى تزداد تباعدا .. يباعدها الاهتزاز .. يكثر حولى الهمس .. أفتح
عينى بصعوبة ، لا أرى شيئا .. أحاول أن أميز الهمسات .. أبقى فى
نقطة مبهمه .. أين أنا ؟ من أنتم . أحاول أن أصرخ .. يحتبس الصوت ..
يداهمنى الألم .. أشعر بالدوار .. يتواصل الاهتزاز .. تذوب الهمسات
شيئا فشيئا ، واستسلم لاغفاءة تحاول قسرا التسلل من بين الهمسات والآلام
والاحلام المتوهجة .

<http://Archivebeta.Sakhril.com>



— هذا صويلح أخو اسماعيل من «أولاد عبد الله» ، أعرفه .

• اتركوه يستريح .

— لقد نام كثيرا .

— تحسنت حالته .

— يمكن لنا مواصلة المسيرة .

— ليس قبل ثلاثة أيام أخرى .

ثلاثة أيام أخرى ! ماذا يعنون ؟ أين أنا ؟ .. فتحت عينى فاجأتنى عصابة
بيضاء تلف يدى .. ورأسى تلفه أخرى ، واذا نظرت حولى رأيت مجموعة
من الجنود . تفرست وجوههم .. كانوا يبتسمون .. استقرت عينائى على
أحدهم .. خيل الى انى أعرفه اقترب منى .. طبع قبلة على جبينى . ابتسم :

— كيف حالك يا صويلح .. صرت رجلا .

- لا بأس . (انه المختار صديق البركة) أين البركة ؟ يا المختار أين أخى
اسماعيل ؟ سأفاجئه بالخبر .
ربت على كتفى :

ستواصل المسيرة يا بنى . أخوك كان مثلنا جميعا .
- والبركة ؟

- موجود .

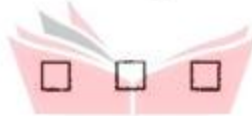
- أين ؟

- فى كل مكان .

- كيف ؟

- تتعب نفسك بالاسئلة ، استرح . وستعرف كل شىء .

- (.....)



الموقف كان أكبر من الفهم . . . وأكبر من البكاء . . . وأكبر من الاسئلة .
بحثت طويلا وسأطل أبحث الى أن القاك يا فارس الاحلام . انت اليوم على
لسان كل سكان المنطقة : جيجل والطاهير وبنى عيشة وأولاد عبد الله
وتكسانة وما جاورها .

قيل شوهد بعد انتهاء الاشتباك محلقا فى سماء المنطقة .

وقيل بحثوا عن جثته أسبوعا كاملا ولم يجدوا لها أثرا .

وقيل شوهد بالجنوب الجزائرى فى المعركة . ويذهب البعض الى القول :

انه مر أمام العسكر بعد انتهاء الاشتباك ولم يتفطن الى وجوده أحد .

وقيل الكثير ، لكنه الآن يصعد مداخل مصنع فى الحجار وآلاف البسمات

المرسومة على شفاه الاطفال ، وهم يرددون :

«البركة لم يمت» .

وفى الانباء انه الآن فى المعركة

محمد الصالح حرز الله

الجزائر فى 2 أفريل 1982

رحلة الحافلة

كان واقفا حذوها بجسمه القصير النحيف ولحيته الشائكة وقبعة العمل العريضة الزرقاء .

– ألم تأت الحافلة ؟

لم يبد الكهل بها أى اكتراث بل واصل عد أوراقه النقدية فسواها وخبأها فى جيب سترته الداخلى . أما قطعه النحاسية العديدة فرماها فى حقيبته الجلدية المشدودة الى نطاقه دون أن يحكم اغلاقها ؛ ثم أخرج ورقة الطريق وشرع يرسم عليها أرقاما مختلفة .

سألته من جديد بصوت ودود :

– الحافلة ... حافلة الضاحية الجنوبية ... ألم يحن موعد خروجها .

– سنخرج بعد قليل .

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

لم تقنعها الاجابة ولم تطف بها الى السطح المرجو ، فاضافت بصوت مسموع :

– لقد طال انتظارنا كثيرا !

شمل بنظرة واحدة طيفها البدين وبطنها المكور وقفتها المملوءة بجانبها ، خبأ الأوراق التى بين يديه ثم رفع نظرات ثقياة الى افلة قريبة منه ولما وجد المقعد الامامى فارغا أرجعها خائبة من حيث انطلقت ، وقال وكأنه اطمأن الى وجهها المألوف الذى صاحبه فى نفس الخط أثناء بعض السفرات .

– الحافلة : انها هناك فى الانتظار . وحالما يأتى السائق سنضع لها العلامة

التي بها الرقم وننتقل .

حدثت فتاة مراقبتها الجميلة وهى تسوى لها خصلات شعرها المسدل على

كتفها :

– الافضل أن تبقى الابواب مفتوحة ! لماذا يغلقونها ؟

ابتسم الكهل وهو يشعل سيجارة رخيصة ، جذب منها نفساً طويلاً عميقاً
ونفث الدخان وهو يسعل . ثم ألقى على المسافرين نظرات وديعة وانفتحت
شفته كاشفتين عن أسنان صفراء متآكلة :

— أتدرون لماذا نغلق أبواب الحافلات ؟.....

بينما كان شاب فى أحد الايام الماضية يتجول فى أنهج المدينة دون هدف
معين — وقد فشل فى الحصول على عمل يشتغل فيه أو فتاة ترافقه — قادته
أقدامه المتسكعة الى هذه المحطة حيث اعترضت سبيله حافلة جديدة مشرعة
الابواب تلمع تحت الشمس ... أوقفته ... تأملها فأعجبته ... فأحبها ...
فعشقها ... وفى غفلة من الجميع صعد اليها ... جلس على المقعد وأمسك
لاول مرة فى حياته بالمقود ... لقد أراد ان يجرب حظه وأن يثبت لنفسه
كفاءته ومقدرته ، خطفها ... هرب بها ... وشرع يتنزه بها فى الطرقات
معتزاً برجولته متلذذا بانتصاره ، والناس يقرون من أمامه كآرائب مذعورة
داهمها الخطر ، فكان مرة يصدم دراجة واخرى يدوس سيارة ، وتارة يدفع
وأخرى يهشم ويكسر مدمراً كل ما اعترضه .

ولم يهدأ اضطرابه وهيجانه الا بعد أن صعد بالحافلة على الرصيف
فاعترضته شجرة ضخمة الجذع سدت عليه الطريق وأوقفته اثر صدمة عنيفة؛
عندئذ أسرع الرجال ففصاوا بينه وبين مرافقه المختطفة بصعوبة : فقد كان
يصيح مدعياً أنها ملك له .

ومنذ تلك الحادثة ومرتنا الشركة ان نغلق الابواب غلقاً محكماً قبل مغادرة
الحافلات .

ابتسم البعض . وقهقه البعض الآخر . وصمت آخرون . أما هى فقد
ضحكت ملء جانبيها بصوت مرتفع غير عابثة بالنظرات الفضولية ، لا لسماع
الحكاية فحبيب — فهى مسلية بعض الشيء — بل لأنها أيضاً راضية عن
نفسها هذه الصبيحة فقد استطاعت أن تقتنى لوازم عديدة لمنزلها من السوق :
أسماك صغيرة جديدة اختارتها بنفسها بعد ان قلبت محتويات الصندوق ،
وخضر وغلل متنوعة متوسطة الجودة لا توجد بها أضرار كثيرة بذلت
مجهودات لانتقاؤها رغم ضجر الباعة وتهديداتهم ودفعت لهم أثماناً مناسبة
أقل بقليل مما طلبوا .

تلك هي الحياة ولا بد من الصراع للعيش الكريم . وفعلًا فقد وفرت بعض الاموال من الورقتين النقديتين اللتين جلبتهما معها . وتمكنت أن تقتنى بعض الادوية من الصيدلى بدون وصفة لتعالج ابنتها الصغرى المريضة بحمى شديدة اصابتها منذ بضعة أيام ، وقد تركتها قبل أن تخرج لدى احدى الجارات ترعاها مدة غيابها .

القت نظرات ملؤها الراحة والرضى والمحبة على الواقفين بجانبها وضحكت هذه المرة بمفردها متذكرة قصتين رواهما لها قاطع التذاكر نفسه فى مناسبة سابقة - فهو مفرم دائما بالحديث عن الحافلات . تذكرت قصة السائق المتعب الذى اكمل عمله ومن طريق العودة الى المستودع داهم بحافلته رواد مقهى كانوا مطمئنين يرتشفون القهوة والشاي ويدخنون ثم تذكرت قصة الحافلة الاخرى التى صدمت أحد المنازل ليلا ودلفت الى غرفة نوم أصحابه فلما أفاق الزوجان مهوتين وجدا ما لم يكن بالحسبان يشاركهما السرير .

ابتسمت مقربة منها أكثر فاكتر القفة الكبيرة التى شملت بحنان كل البضائع والخضر ؛ انحنت قليلا وسوت قرطاس الدواء لكن آلمها بطنها وقد اضطرب فيه الجنين الثالث قليلا . انه يلازمها ليلا نهارا منذ ثلاثة أو أربعة أشهر استوت واقفة وهى تضغط على جنبها لتحسب الألم الخفيف متمنية لو تبخر الزمن فجأة ووجدت نفسها من منزلها تسقى ابنتها الحليب وتجرعها الدواء وتطبخ الغداء . ثم تجلس خلف آلة الخياطة تحضر فستانا لحريفة مستعجلة .

وتحرك الزمن بطيئا مملا حولها فى تلك الصبيحة الباردة المغيمة . ثم أطل وجه السائق الشاب وفى يده كأس وفى الآخري قرطاس ملفوف .

اتجه اليه الكهل فتبادلا التحية ثم صعدا الحافلة معا. واغلقاها بسرعة خلفهما وأخذا يقضمان رغيف المحشو ويرتشفان معا القهوة من كأس واحدة ويدخنان بتلذذ وابتسام .

فتحا الباب الامامى لعون أمن ورجل أنيق البدلة وأغلقاه ، فرددت امرأة تحمل رضيعا فى حضنها - الدنيا بالوجوه والآخرة بالافعال . هذا ظلم ! أيدتها سرا . ورفعت بكلتا يديها القفة الثقيلة عن الارض منتظرة دورها .

ما ان انفتح الباب الخلفى حتى تدافعت الامواج البشرية القليلة ملهوفة تريد الصعود فى وقت واحد تجرى متجهة نحو المقاعد الفارغة .

ولما هدا الزحام قليلا وخمدت اللهفة صعدت على مهل فوجدت كل الاماكن
محبوزة فامسكت بحديدة عمودية هادئة منتظرة الرحيل .

وهدر المحرك محدثا أصواتا متتابعة استعدادا للانطلاق فاتجه قاطع التذاكر
وهو يمسح ذمه براحته نحو الحرفاء ، وقد أخرج من جيبه لفافة تذاكر
السفر الصغيرة الملونة وشرع يوزعها يمنة ويسرة متسلما المقابل ومرجعا
بقية النقود لأصحابه نظر شيخ ملتف ببرنس جالس أمامها نظرة استياء الى
أم الرضيع الواقفة والفتاة المنسدلة الشعر الجالسة . وطلب من الفتاة أن
تنهض فأهملته حيناً من الوقت . ثم قالت دون أن تلتفت اليه .

— ان شئت ورق لها قلبك فاترك لها مقعدك ؟

سوى ثوبه حانقا واثكأ على عكازه بصعوبة ووقف متمتما عيها فجلست
المرأة فى مكانه وهى تجمع أطراف غطاها وتحضن الابن النائم دون أن تتفوه
بكلمة شكر .

أحست بأوجاع خفيفة تسرى فى قدميها المتعبتين من المشى . وناداهما شبه
صندوق معدنى يغطى إحدى العجلتين الخلفيتين كانت تعودت أن تشغله عند
الزحام فمسحت عنه الغبار براحتها وجلست ترعى القفة بعينيها وراحتها
ورجليها .

ثم دوى المحرك بصوت قوى وانصفق الباب وتحركت الحافلة بطيئة
متمايلة فى رحلتها المعهودة غير عابئة بحريف أتى متأخرا جرى حذوها يندق
على غلافها الجانبى دقات الرجاء والتوسل ثم دقات الحقد والنقمة .

وعبرت الحافلة ساحة المدينة وشوارعها العريضة تتسع أمامها حيناً وتضيق
فى غالب الاحيان بسيارات الاجرة الصغيرة التى تتحرك ببطء مضجر توقفها
جميعا الاشارات الضوئية .

تنقلب بها الحافلة بصعوبة كبيرة محاذرة أن تلامس العربات المتنوعة أو
تصدم بعض الراجلين التائهين الذين أهملوا المعابر المخططة واللون الاحمر
وانتقلوا على هواهم . وكانت معجبة بالسائق الذى — رغم حداثة سنه — كان

يقود عربته بدقة كبيرة وبدون انفعال . لكن الذى كان يتعبها ببطء تلك الرحلة والرجات العنيفة التى تحرك كامل جسدها وتميل الواقفين رغما عنهم اثر كل وثبة تقوم بها الحافلة أو ميلان الى أحد المنعرجات أو توقف مفاجئ أمام الضوء الزاجر .

ثم خلفت المدينة وراءها - غير آسفة - بمناراتها العالية وسورها السميك ومغازاتها ومقاهيها وضجيجها وصخبها . وتوغلت الحافلة فى سير سريع منتظم بعض الشيء رغم سحايات كثيفة سوداء بدأت تغشى السماء وتنتشر على الطريق ظلمة ثقيلة تنقبض لها النفوس .

أخيرا أكمل بائع التذاكر توزيع وريقاته واستكان الى ركنه الصغير المخصص له القريب منها يرسم بعض الارقام ، فرأى سجارة تمتد اليه فخطفها من يد الشيخ وقدم له النار . وشرع الرجلان ينفثان دخانا كثيفا خانقا .

قال الشيخ معاتبا يلفه برنسه وسحابات بيضاء تتصاعد حوله :

- كم تغيرت الاحوال ! كان الرجل يمنع المرأة من مغادرة منزلها ابدا ومن كشف وجهها للرجال الغرباء . أما اليوم ؟ ...
<http://ArchiveBeta.Sakhril.com>
 وأيده الكهل بهزات رأسه المتتابعة .

- اليوم تغير كل شيء ؛ فقد زال الحياء . وأصبحت الفتاة سافرة تلبس ثيابا تظهر مفاتنها ، خليعة تضع المساحيق على وجهها تتبرج فى الطريق وتلقى ببسامتها وضحكاتهما هنا ، وهناك ملقية بالاخلاق الفاضلة عرض الحائط .

بدأ بعض الواقفين ينصتون لما يقال وتدخل أحد الشبان كان فى مؤخرة الحافلة يبدو أنه لم يدفع ثمن التذكرة :

- وما الذى يعجبك فى جيلك ؟ عشتهم عهد الغبن والتعاسة . لا يرى الرجل منكم زوجته الا ليلة الزفاف وأحيانا تخطب له واحدة فاذا بأخرى بشعة المنظر تحل محلها فيقبلها على مضض ويعيشان معا بقية الحياة .

قاطعة الشيخ مستنكرا :

- كنا على كل حال نعيش فى ستر وعافية أما أنتم ...

– اننا نختار شريكة الحياة . ونتعارف قبل الزواج . ونتعاون معا فى العمل
ونلتذ بطيب العيش . فمثلا هل ترضى أن تلبس زوجتك جزمين مثل فتيات
اليوم تساوى قيمتهما ثمن زيتونة بأكملها .

ضحك الحاضرون مشجعين على مواصلة الحديث فامتعض الشيخ وقال
مفضلا الانسحاب :

– اننا نرجو من الله حسن العاقبة يا بنى .

فلاحه الشاب ساخرا :

– ومن ضمن لك انك ستدل الجنة ؟ اطمئن ستجدها قد امتلأت بما فيه
الكفاية .

وانفتح الباب الخلفى ليصعد بعض الراكبين فقفز الشاب الى الارض وقد
كاد الباب ينغلق عليه .

ثم سمعت أمامها فتاة تحدث مرافقتها الواقفة حذوها بصوت
مسموع عن ضرورة اقتناء أواني منزلية عصرية لعرضها أمام الناس يوم الجهاز
اذ لم تعد كما كانت فى الماضى من الكماليات ، فابتسمت حين تذكرت أنها
كانت قبل سنوات قليلة مثلها تماما لا شغل بالها غير حديث الجهاز ولا
يلذ لها الكلام الا عنه . لكنها فهمت – فيما بعد – أن لا فائدة فى تكديس
الكؤوس والشوكات والملاعق والثياب اذا لم تكن لها خزانات كافية لحفظها
واذا كان المنزل الذى تسكنه ضيقا – تدفع ثمنه أقساطا مع زوجها كل بداية
شهر – وهو يكاد لا يتسع لعائلتها فلا تجد مكانا ملائما تضع فيه آلة خياطتها
أو ثياب حريقاتها .

ونظرت مستغربة الى الفتاة الواقفة تبدى إعجابها بالفتيات اللاتي يعبرن
البحر ويسافرن الى البلدان الأوروبية المجاورة ومعهن أموال قليلة فيبقين هناك
بضعة أيام بمفردهن ويعدن اثر ذلك محملات بأعلى الهدايا وأحسن الاواني
وأفخر الثياب . وتفتخر الواحدة منهن أمام زميلاتها وجاراتها وأقاربها
بما جلبت ولا يتفطن خطيبها المسكين الى ما حدث لها .

عُضت على شفتها السفلى حين ظهرت فكرة جريئة فى خاطرها . لقد تصورت نفسها لحظة تتجول بمفردها فى مدينة أجنبية كثيرة المغازات تنظر يمنة ويسرة معجبة تنتظر دعوة من أحد سائقي السيارات . لكنها حركت رأسها طاردة الفكرة المفاجئة التى لن تقبل ولن تجرؤ أبدا على تنفيذها مهما جرى وحتى جسدها الذى أتبعه الانجاب والارضاع فقد أصبح بدينا بعد نحافة وثقيلاً بعد خفة لا يجرى كذى قبل .

وتوقفت الحافلة أمام مصنع كبير فصعد بعض شباب يلبسون ثياب العمل الزرقاء الملطخة بالسواد فابتعدت الفتاة الواقفة عنهم وجلست على ركبتى صديقتها التى وجدت المجال فسيحاً لمداعبة شعرها من جديد .

- اننى اشمئز من النظر الى هذه الاوساخ الكريهة الى درجة أننى أعاف أن أتناول فطور الغداء .

وأيدت الصديقة مرافقتها مقترحة أن يلبس العامل بلوزة نظيفة فوق ثياب العمل المتسخة .

وتساءلت هى عما يحدث لو تزوجت أحدهما عاملاً يوماً مثل زوجها يشتغل فى إصلاح الآلات الميكانيكية بمصنع كبير . ولما يعود الى المنزل متعباً تجلس معه أمام نفس المائدة وتنتظر اليه يتناول الطعام بيد مسودة رغم غسلها . ثم يعود فى المساء وينام بجوارها وبقياً روائح النفط والبنزين تتصاعد من ثيابه وتملاً أنفها .

لقد ولى عهد الاحلام الصبيانية والاوهام والخيالات وهى تفكر الآن فيما هو أهم وأجدى : فى شؤون المنزل الكثيرة وتربية الابناء تربية صالحة وتوفير بعض المال لشراء جهاز تلفزة يملأ منزلها مرحاً وأنساً ويعيد لها زوجها مبكراً فى المساء فلا يسهر كثيراً فى المقاهى . وربما فى تعويض آلة الخياطة بأخرى عصرية ذات محرك أو تشييد غرفة اضافية فى الحديقة تجعلها مصنعا صغيراً تخصصه للعمل وقبول الحريفات .

ولكن تلك احلام عزيزة المنال نرجو أن تحقق فى الصائفة المقبلة ولو واحداً منها .

★ ★ ★

وفجأة أضاء الكون بنور سماوى سرعان ما تبعه قصف هائل متتابع فصمت الجميع وانكمشت فى مكانها وقد احست بضيق شديد ووحشة رهيبة ثم سقط المطر رذاذا وتحول اثر ذلك الى قطرات غزيرة متتابعة تكاد تثقب السقف والى سبيل ضبابى كثيف يغشى النوافذ .

وانعرجت الحافلة مائلة الى طريق فرعى ضيق فكثرت الرجبات واشتد الاضطراب وفقد الراكبون توازنهم أما هى فقد آلتها أوجاع باطنية ما فتئت - منذ بداية الرحلة - تكبر وتتضخم ولا تستطيع ايقافها .

واشتد حولها الدخان والضباب فكادت تختنق . وأخيرا أصابتها شبه غيبوبة فأجهدت نفسها ونهضت بصعوبة لتمسك بأحد القضبان المعدنية القريبة منها .

فتحوا لها النافذة فألقت برنتيها الى الخارج تلتهم الدواء الجديد المصحوب بمياه المطر العذبة .

وبينما كانت تملأ صدرها بالهواء البارد الصافى تاركة وجهها وشعرها للرياح والماء اللذيد لاح لها طيف الزوج عائدا من عمله يقود دراجته النارية الزرقاء القديمة منحنيا ليواجه الخيوط المائلة النازلة من السماء وخلفه الابن متشبثا به بكلتا يديه - وقد جلبه من روضة الاطفال ولفه بسترته - فاشرق وجهها اشراق الشوق والانس والمحبة . وتفتح قلبها زهورا فواحة تنشر العبير حولها .

ثم التدت يدها ملوحة الى الخارج للكائنين الحبيبين المتعبين تحت رحمة السماء متناسية أتعاب الطريق وآلامه وسبحت فى شبه اغفاءة لذينة تنعم بالرضى الباسم والانشراح الوردى وحنين شفاف كال فجر المنبعث من الافق البعيد .

حركت يدها الممتدة المبتلة . وكادت تلمس اليدين الممتدتين نحوها لكن أقبلت شاحنة اجنبية ضخمة فى اعلى الربوة تعدو نحوهم مسرعة وحذوها شاحنة خضر صغيرة مغطاة تسير فى نفس اتجاهها تريد مجاوزتها .

وضاعت الطريق الضيقة عن العجلات المضطربة المنزلة وانعرجت الحافلة الى أقصى اليمين متجنباً الخطر الداهم فصدمت الدراجة ومن عليها بعنف وألقت بهم على الأرض .

وأحست - والقلب يتفتت شرراً محرقاً - ان إحدى العجلتين الخلفيتين اعترضها حاجز بشري كبير فارتقت عليه . صعدت فوقه ٠٠٠ داسته ونزلت على الوحل بقوة المنحدر الجاد . الضجيج والصراخ حولها وانتحبت في أعماقها بدون صياح على رفيق العمر الذي فارقها .

ولما يكمل معها رحلة العمر .

واثر ذلك دفعتها رجة عنيفة الى الخلف وألقته على ظهرها وقد أصابها المعدن الصلب في مؤخرة رأسها والقفة الكبيرة على بطنها ووجدت نفسها جالسة والخضر والاسماك مبعثرة حولها .

وبينما كانت الحافلة تقفز على الحجارة والوحل والحشيش متجهة نحو الطريق الذي تشقه السكة الحديدية أحست بالجنين يهتز في بطنها ويرتج منفعلاً ثم يقفز الى العالم بدون استئذان قبل الميعاد <http://www.alukah.net>

غابت آلامها وتبخرت فرفعت كفيها عن بطنها فوجدتهما ملطختين بدماء فوارة حارة ما فتئت تسيل وتسيل ٠٠٠ غزيرة متدفقة وغطت أرضية الحافلة المضطربة المتجهة نحو القطار القادم من بعيد وهو يصفر عالياً ترج عجلاته الأرض رجات متتالية .

فيفري 1983

بورواي عجيبة

مع قصص جمعة محمد جمعة :

فى (الأبيض) و (الأسود)

عرض وتحليل : يحيى محمد

تقديم :

يمكن أن أقدم لقراء (قصص) الكاتب العربى جمعة محمد جمعة من خلال كتابه : الأبيض والأسود وقصص أخرى ، ذلك الكتاب الواقع طبعه سنة 1977 بمطبعة الجبلاوى ، فى 12 صفحة - من الحجم المتوسط - وبواسطة الإيجاز أيضا - كما يشير إليه التعريف - نعلم أن الكاتب له جولات موفقة فى القصة القصيرة والطويلة والأعمال الروائية منذ سنة 1973 ، حظى بالاهتمام فى البرنامج الثانى والعالم للاذاعة المصرية ، وفازت قصته الطويلة (قلب الأم) - التى لم تنشر - حسب الاستفاضة من الكتاب نفسه ، فازت هذه بجائزة مجمع اللغة العربية 1974 - 1975 .

و « القصص » التى بين أيدينا هى قصص قصيرة تختلف موضوعاتها - كما سنرى - والأساليب التى استخدمها كاتبها للدلالة على عمقها وصلتها بال نماذج الحديثة أو العكس وحسب الترتيب هى :

- الأبيض والأسود - احتقار - لامبالاة - كانت فعلا تفاحة - عصفور على نافذتى - رغبة فى الانتحار - لحظة حب حقيقية واحدة - عصفور الحب ودائرة الموت - ذعر فى الحديقة - الجواد الفائز .

وشاء المؤلف أن يعمق حس هذه الموجودات الفاحلة فخطب الحياة : الأم والأب والأخوة والامس واليوم والغد ، حياة الكفاح والعمل ، رفيقة عمره زوجته فكان هذا التقديم المدخل النفسى الواسع لعالم هذه القصص ان شئت .

الاسلوب :

يبدو لي - بعد التأمل في قصص المجموعة - أن الاسلوب الذي اعتمده الكاتب جمعة محمد جمعة يمتاز بقدرته على تمطيط الجو النفسى داخل التركيبة الفنية للقصة ، اى اعتماده على الاشارات الضمنية بحس خاص ، رغم التمشي المناسب تقنيا من قصة الى أخرى . وهذا قد يعزى الى التحكم فى جوهر النظرة نحو أسلوب قصة قصيرة لا يمكن أن ينقلب فجأة الى ديباجة مقال أدبى أو اجتماعى أو تعرية لافكار تتناول طرح بعض القضايا، ففى (الأسود والأبيض) - مثلا - يرى الكاتب ضرورة الابقاء على النمط السردى الذى كان قد مهد له من البداية ، لكن برابط شعبى ممتاز . ويلمس ذلك من خلال وصفه - فى منولوج داخلى - لحالة هذا البطل الذى هو فى صيغة المخاطب ، وردة على الافكار التى يطرحها من خلال شعوره بالحاجة والاحتياج . لكن فى قصة (احتقار) هناك سهولة أحداث غير مقرونة بما يمكن أن يصحبها من اعداد نفسانى سواء للبطل - الذى هو بنفس الصيغة الاولى - أو لتحرير المحيط من الرتابة ، والعمل على تغيير منهج الحوار الباطنى ، ولو أن القصة كانت انطلاقا من حادثة عادية صيغت هكذا ، دون أن تترك قضية اهمال - نادية - أى اثر نفسانى فى البطل . ولعل نهاية الاثر الدرامية قد جعلته بعيدا كل البعد عن التحرك الذى كان المؤاف يروم السير فى ضوئه منذ اللقطة الاولى للقصة !

على كل نجد وصفا جميلا لقضية شائكة ما تزال مهيمنة فى شعوب العالم الثالث - على وجه التحديد - وهى (النقل العام) ذلك ما تجسمه قصة (لامبالاة) وهى لا تتعدى كونها تسجيلا ذكيا لهذا الشريان المضطرب الذى يعطل المصالح ، ويخفق احساس المواطنين المستعملين لهذا النوع من المواصلات (حافلات) أو الترامواى فى القاهرة بالذات ، أو أى وسيلة نقل عمومية فى أى بلد متخلف أو (سائر فى طريق النمو) . لكن القصة ينقصها الحوار العمق الذى لا يخلو من طرافة فى هذه الحال . بالرغم عن الاشارات البعيدة التى تناولتها وبأسلوب ما يسمى (تداعى الخواطر) فرضته حالة من « الهستيريا » التى عليها « علبة سردين الزبائن » كما نطلق على الحافلة عادة ..!

المضمون :

يبدو لي أن الكاتب قد انطلق بأقاصيصه من واقع اجتماعي معين ، يحكى عدة ألوان وأغراض وهموم انسانية ، فهذا بطل « كانت فعلا تفاحة » يصارع الفقر بعاطفة مشوبة بحذر وخيفة ... و « عصفور على تافذتى » القصة التى تطرح قضية الفقر والغنى من بعض الجوانب ، وما الى ذلك من المحاور العامة والبعيدة التى كان يستحسن إثارة أجزاء منها كلقطات تستقطب هرمية الفن الذى يمكن للمؤلف أن يصمم هندسته لكل عمل يروم الانفراد به **تقنيا واجتماعيا** ... ذلك أننا فى هذا اليوم أمام أساليب ومضامين عديدة وأنماط من التجارب تفرض على كتاب القصة وبخاصة القصيرة منها أن يكونوا على وعى حساس ، وإدراك متغير لان موازين الاشياء قد انقلبت ، ولان - التعميم - فى اثارة القضايا الكبرى فى أى أثر قصير بالصورة التى نكتب بها نحن فى هذا الجزء من العالم ، أى إن فرضيات التصور قد تغيرت ومن هذا المنطلق يمكن أن نعيد النظر فى هندسة الكتابة عندنا ، الى درجة أننا ينبغي أن نعرف أساليب ومضامين غيرنا ، ذلك ان المدخل للقصص الاجتماعية لم يعد بالصورة التى قد تصادف رضانا فقط ، اذ لا نجد أى تفتح على المتغيرات فى الذهن والتلقى والمحيط الاجتماعى الذى نعيشه ، وبهذه الصفة يمكن أن نغير نظرتنا مما نكتب ، وبأى أسلوب نكتب ، والقضايا التى يمكن أن نعيد هندستها التصورية والذهنية العامة الحائمة فى تركيبه الاعداد والتلقى للآثر القصصى . وليس معنى هذا أننا قد نعدل عن الخوض فى القضايا التى تعودنا الخوض فيها برتابة (مثل : الحب ، الفقر ، السعادة ، الحظ) وما الى ذلك ، بل نعيدها بصيغة أخرى وبمحيط آخر نحترم فيه - على الأقل - قدرته على التغيير وعدم تمشييه مع النواميس والضوابط التى كنا نسير عليها كتابة وذوقا ، هى مناسبة - على كل حال - نشكر فيها الاستاذ جمعة محمد جمعة الذى أتاح لنا كتابه الذى بين أيدينا أن نسلط بعض الاضواء على الطريقة التى يكتب بها ، والاجواء التى اعتمدها ، وطريقة الاسلوب التى يعتبرها كاتب القصة القصيرة بصورة بارزة فى عصر تضاربت فيه كل المفاهيم وأصبح لزاما على الكاتب أن يطور نظرتة حتى يعطى اثرا لا يذوب مع الايام ، ولا يكون فى مستوى العصر ..

إن ترصد الوقائع الاجتماعية في قصص (الأبيض والأسود) لا يمكن أن يكون على حساب « اللحظة العابرة » ذلك أن محاولة تصوير الوقائع شيء ، والدلالة على تناقضاتها شيء آخر وبطريقة أكثر إحاطة ، إذ المقصود من أى مسألة اجتماعية فى قصة قصيرة بالذات ، هو لفت الانتباه لها ، بالتعبير والابداع والتصوير المجرد .. أى بلا تعاليق أى فى سبيل إثراء اللحظة الخصوصية التى ساهمت فى إبراز العمل القصصى . وهذا ما انتبه اليه الزميل جمعة محمد جمعة الذى سنراه فى مؤلفات أخرى حتى نعطيه حقه بأمانة .

والسؤال الذى يمكن طرحه بالمناسبة : لماذا حاول المؤلف - أسوة بغيره - أن يطرق موضوع (الحب والحبيب) من منظور العادة والتقاليد ، وكأنه علاقة سالبة أو موجبة بكل بساطة . ذلك أن هذه النظرة تجاوزتها الاحداث ، حتى الفتاة أصبحت لا تهتم بالدربة على ما سمي بالحب ، والزواج بالخصوص الذى أسى فهمه وتحليله « كيف ولماذا » لأسباب معروفة تتناول الموضوعات من زوايا عديدة ، ومؤثرات اجتماعية ونفسية متشعبة ، والامر - هكذا - ينطلق من المحيط المبهت ، وعلى كل فنحن فى انتظار جمعة محمد جمعة فى الجديد . ولنا عودة مع مؤلفاته المقبلة ، وتحية قصصية له على هذا المجهود المشكور .

يحيى محمد

الدار العربية للكتاب

مؤسسة ليبية تونسية للنشر والطباعة والتوزيع

- المقر الرئيسى : عمارة وفاء شارع غومة المحمودى ص . ب . 3185
الهاتف : 30384 - طرابلس - الجماهيرية العربية الليبية الشعبية
الاشتراكية

الفرع الرئيسى : 4 نهج 7101 - المنار / 2 / ص . ب . 1104
الهاتف : 2360600 - تونس - الجمهورية التونسية

الموت فى الخريف

١ - فى لحظة ما .

• كان وحيدا .

• متشاقلا تعباً ، وظلام الليل رداً ، مرشوش بالوحل .

• ما تحرك أحد . ما فتح عينيه . . ولهذا ظلت القرية صامتة سابعة فى

نوم عميق .

• والزمن يمضى بلا رجعة . .

• وأولئك يمارسون انتحارهم اليومى منذ الفجر .

• على رصيف الشارع الممتد الطويل تكدسوا . لم يتكلموا والجوع مفترس

بمزق أمعاءهم .

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

• كان وحيدا .

• وأولئك اجسادهم شبه عارية يلسعها البرد . . والقرية دخلت بدايات

الخريف .

• أما الحزن فهو يحفر الوجوه . ربما يتناسون همومهم فى مضاجع زوجاتهم

• وربما الحشرات التى تدب تحتهم تبعد عنهم النوم .

• والزمن يمضى .

• والسماء تكاد تمطر .

• والقرية يتوسطها شارع واحد طويل :

• من الناحية اليمنى . . منازل قديمة يغطيها قرميد أحمر . وأمامها أشجار

باسقة .

• ومن الناحية اليسرى . . غابات كثيفة وقصر منتصب فى أعلى الجبل .

أما أولئك .. فأحدهم يسعل مرضا ولحيته الكثة تزحف ء وجهه العابس
 وثانيهم قصير القامة ، أشعث الشعر .. ينتعل حذاء باليا وثالثهم ، ورابعهم
 آدميون فى ثياب البؤس والشقاء .
 وعلى الارض أوحال وأشواك .
 وكلهم يأس .. وقنوط .
 الاجساد شاحبة كالجثث فى أكفانها ، ساكنة على أرض يابسة فى جهة
 معزولة .

★ ★ ★

مضى الزمن سريعا ... ولم يتمهل .
 والقرية يغمرها ضباب كثيف ، والاكوخ يسكنها الحزن وفى السماء لون
 قاتم السواد ينحدر الى أسفل .. ثم يومض البرق .
 على الرصيف زباله تنتشر روائحها كريهة .. وسكير يترنح . يغنى ...
 يصفق .. يبكى .. يتوعد .. وكلب مبتورة رجله يختفى خلف جذع شجرة .
 ومع تهطل المطر غزيرا ، اختفى الجميع . وبقي وحيدا . يائسا فكر .
 متعثرا خطا . ثم ركض هو والصمت . وقصف العود يولد ويموت .
 ما كان يشعر براحة فى نفسه ، وربما ما كان يريد ان يكون هو .
 أين هو الآن ؟
 انه كسمكة خارج الماء تتنفس فى انتظار النهاية .
 هكذا يعيش للمكان بمرارة والم .
 وأين السماء ؟

من العبث أن يمعن النظر فيها مغشاة بالسحب الداكنة . قد لا ينظر اليها
 أبدا . ولكنه غريب كهذه الافكار تختنق فى ذاته .
 قصف الرعد هذه المرة فى صدره .. فانفجرت أعماقه .
 لم يعبأ بالمطر يبلل جسمه وأحس بدفء يحركه . الحيرة وهو .. والشارع
 والحزن العميق . وصوت المؤذن يتعالى مختنقا فى عتمة الضباب . وكلب
 يضاجع انثاه .. فتسحرها اللذة .. فتسترخى ولا تمنع .

كانت السماء متجهمة ، أما صوت المؤذن فقد انقطع . والقرية هادئة وجبالها شامخة .

اختفى الكلب .. وبقيت انثاء واجمة .

للصمت وقع ثقيل على النفس . ريح باردة تعصف .. فتتناثر أوراق الاشجار اليابسة هنا وهناك على الرصيف .

ظهر الكلب . اتكأ على جذع . رفع رجله المبتورة وبال كثيرا .. وفى الاثناء كانت عيناه تراقبانه بحذر . غضب ... نهره بحركة من رجله اليمنى فما تحرك . كان البول ، هذه المرة ، غزيرا أصفر اللون ينساب مع سيول المطر . رائحة كريهة تملأ أنفه .

.. ثم عادت الانثى متعثرة ، والتصقت بكلبها مرتعشة .
ما نهرهما هذه المرة .

كان ينظر الى المشهد بعينين متسعيتين .

الحرارة تسرى فى جسمه ، الدماء فى عروقه ، وعيناه تزدادان اتساعا .
سمع أنينا . بحث عنه فى داخله . حلق فى الكلب وهو يغادر المكان ثمة ما حركه

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

واصل السير تحت المطر الغزير . المكان يضيع فى ذاكرته حتى النهاية والزمن يمضى .

أما الحرارة ، فدرجاتها ترتفع فى داخله كلما وطئت قدماه الارض . أما الكلب فقد اختفى . وأما الانثى فقد بقيت بالمكان تتأوه .
نظر فوقه فرأى ..

يمينا ، السماء يغمرها ضباب كثيف . يسارا ، تنقشع السحب فيغوص البصر فى الزرقة .

الى أعلى ، عالم غريب ولكنه لا يراه . صاحب الحيرة فى نفسه متطلعة ، تائقة الى المجهول .

وتساءل عن سر بدايته ونهايته ، فما وجد جوابا .. انه يتألم .. نسي المطر والكلب والمكان .

الى السماء حديق مليا ، كان الضباب يغمرها ويغمر وجوده الغامض ،
وعادت الحرارة تشتعل فى الاعماق ، فأحس برجفة فى كامل بدنه .

★ ★ ★

للوحدة ، حين يبتعد الانسان عن غيره من البشر ، لذة .
وغالبا ما تكون مخالطتهم غربة !

فى تلك اللحظة ، بلغه أنين الانثى .. ابتعد عن المكان والحزن يغشى
عينيه .

فكر قليلا .

ثم فكر أكثر .

تابع سيره بخطى حثيثة .

لم يكن الزمن قد توقف فى ذاته .. وذاته منذ بدايته هى الزمن يسرع ..
يعدو .. الكلب يواقع انشائه فى ذاكرته وانينها يزيد من حرارة جسمه . أما
الضباب فقد انقشع .. اما هو فالحزن يرهقه . انت الانثى .. تأوهت فى داخله
مرة أخرى .. فعاد يرتجف .

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

★ ★ ★

هو والحرارة والانثى تثن فى داخله .

والزمن يولد فى كل لحظة . يكبر بلا نهاية .

وهو حزين يسير .. ولا أحد من سكان قرينته يفهمه .

سار غريبا والحزن .. وعاد الى منزله بوجه كالموت .

حزنه قاتم . أثاث قديم . أسود متآكل .. هنا منزله .. جلس حذو
الموقد .. نزع معطفه المبلل وأخذ يتدفأ .. الزمان : فى فصل الخريف .

2 - ويمضى الزمن ..

وأمه عجوز تستيقظ مع الفجر .. تصلى فى خشوع ، وتتضرع الى ربها .
هى لا تصرف عن زمانها شيئا ، ما تزال فى صلواتها غارقة .. أنفاسها
وهن .. جسدها وهن .. ونور السراج الخافت ينتحر .

ما هي أمه التي سحقت أنوثتها في سبيله ، وعناء الايام أخايد في وجهها . أنهت صلاتها وتحركت جثة .. تحركت وهنا .. تحركت شهيقا في قلبه .

وتوالى الايام حزينة .

كل صباح . تستيقظ باكرا كعادتها .. تحم معزقها وتتجه نحو الغاب للاحتطاب . تقتلع جذور الاشجار .. تكومها .. تحزمها وتعود بها على ظهرها .

هي لم تفشل رغم الوهن .. تعرف أنها ولدت لتشفى من اجل ابنائها . حياتها جهاد مستمر .

والغرفة ضيقة ، صامتة .. حيطانها قديمة ، باردة . وموقدها الصغير نيرانه تشتعل ، ولكن الهواء الشاجى يتسرب الى عظامه فيرتعد جسده .

يقترب من الموقد أكثر .. يتدفأ في صمت ... يتدفأ .

والزمن يمضى عبر وجوده ، يمضى ويتركه حائرا .

أما أمه فتعمل طوال اليوم .. تظعم الدجاج ثم تأتى بالماء .. وتغسل الثياب وتكنس البيت . وتعد الاكل .. وتتوقف لتصلي وتحمد ربها .. وتعود لتعمل .. ثم تصلي .. تصلي .. والغرفة حالكة .. والبرد يشتد .. والسماء تتلبد مرة أخرى بالسحب .

خارج البيت ، هناك أشجار الصنوبر عالية ، وفرسيق وحببات بلوط منشورة .

ومن بعيد ، تلوح القرية ساكنة .. تتوسطها مئذنة تختفي قمته في انضباب .

تولد الاشياء في باطنه . أما الحزن فعميق ، يقوى ويضج . واندلع حريق في لحظته حين أحس بأصابع أمه تلمس شعره ، فالدنيا كلها تحترق في عينيه ألما .

وتحرك الغضب في صدره موتا . وتاه في تفكيره .

★ ★ ★

أمه تستيقظ باكرا كعادتها •

تحمل المعزق وتتجه الى الغاب • هي العجوز ثقيلة الظهر ، السائرة فى بطء ، الحاملة بالحطب تتسلق شجرة الفرنان ، هاوية بالمعزق على الاغصان اليابسة ، فتفقد توازنها وتسقط ، فيتكسر العظم ، وتسرى الرجفة ، وتسيل الدماء ••

الجبل ينثن بالجسد الغارق فى آلامه والاوراق الصفراء اليابسة ملطخة بالحزن •

•• ثم تعوى الريح مخيفة تصم الآذان ، مولولة ساخطة وتظل تعوى بلا انقطاع ••

يتحرك جسد العجوز رغم الالم •

وتعوى الريح فى أعماقه عنيفة • والغاب صخب ثقيل لا ينبىء بطقس عادى •

أما أمه ، فكتلة من العظام ترتعش •

3 - الزمن يمضى ••• وهو يتآكل •

ما كان لينقذها لولا الصدمة •

يصعد الجبل غير مبال بالوعر • يقف بجانبها ، لا يهمل الوقت •• ويحملها على ظهره صامتا ، ذابل العينين ، كسير القلب •• ويغيب فى حيرته •

ويسير •••

لا يهمله ثقل جسدها • هي كل شئ فى حياته •• فى كيانه •

ويسير ••

لا تهمة لحظاته المتأزمة •• صامت يتجاوز المكان ، والزمن •

•• ويظل سائرا ••

سأل الطبيب عن حالها •• عن مدة بقائها بالمستشفى •• طمأنه بشفاؤها عاجلا ووثب أملا وأحس بأن الزمن لن يدوسه •

وسار حثيثا على الرصيف .

هل يعود الى منزله وأمه بعيدة ؟

ليعد رغم الفراغ والحزن ، ولكنه سيقاوم القلق حتى طلوع الفجر .

وها هي الساعة اليدوية القديمة تنن دقاتها في معصمه . فيحاول ان يتناسى وجوده في الغرفة . ويحدق في العقارب ، فاذا بها تتحرك عنيفة مرعبة في ليالته . وأدرك أنه الى نهاية اليأس قد بلغ . ونسى أنه هو . ونسى المكان .

أغمض عينيه ، ولكنه لم يذق طعم النوم .

★ ★ ★

هل يصدق أنها شفيت بعد تلك الحادثة ؟

وهل يبقى في حزنه وأمه بجانبه تتحدى الزمن . والكوارث ؟

كانت نائمة في فراشها . . يرى وجهها ببسمة الحانية .

. . يقترب منها ويترك يده ترتاح على جبينها . . يتنهد طويلا .

وخرج من البيت .

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

ولاول مرة ، شعر أن جسده غريب عنه . أشعل سيجارة بيدين مرتعشتين

ونحرك . . غطس في بحر أحلامه المكتظ بالنهود والسيقان الناعمة الرشيقة .

وتفجر البركان .

صوت يستغيث في باطنه . وعادت اليه الحرارة ، ثم انهارت أعصابه . .

وتضاعفت أحلامه .

★ ★ ★

لا يتصور أحد ما يعانيه جسده من جوع ، ولقد حاول أن يشبعه ، ولكن

النار . . دوما في الباطن مشتعلة ، ولهيبها يتسع . أما قلبه ، فدقاته قنابل

متفجرة . وبدأت الدماء تضطرم في شرايينه .

وحدق في الساعة ، فاذا بعقاربها تحترق في كيانه . واذا بالجسد يصرخ

يصرخ .

★ ★ ★

عندما عاد الى غرفته ووقف امام المرأة ، كان الخريف يموت فى ذاته .
 نزع ثيابه ومكث عاريا .
 وكان الجسد قد بدا يمارس لذته فينزلق به الى عذوبة الاشياء .. يده
 تلامس نصفه .. فتضيع .
 وفى لحظته أحس بمعنى الجسد الذى ينتحر ..
 4 - ويمضى الزمن رهيبا .
 وحيد فى الغابة وهو حزين .
 غراب ينطق من بعيد ثم يسكت .
 ما توقف عن السير ، سماء ملبدة بالسحب ، وأشجار تعرت أغصانها ،
 وأوراق تكومت هنا وهنا .
 كان يسبح فى أفكاره ، والصمت حوله كابوس مخيف .
 سار وحيدا .
 جسد مكبوتة عوالمه وهو اللذة تصعد من نصفه ، تتلوى فى أحشائه ،
 وتقف الى دماغه . رعشة تسرى فى كامل أعضائه ، وتصير حرارة .
 http://Archivebeta.Sakhril.com
 وفجأة .

يحترق الغاب فى عينيه . رائحة النار تقعم أنفه . تشتعل الاشجار
 والاوراق فى داخله .
 هو يلتهب فى صمته والكلب يعود الى ذهنه ليضاجع انثاه فى غمرة اللهب
 وظلت النار تاكل المكان ، وتعابث السماء ، ويحترق صوت المؤذن فى
 أغواره ، وتتحول اللذة الى رماد .

★ ★ ★

الزمن حريق هائل فى ذاته .
 تضطرم النار أكثر ، وتختل عوالمه ، فتنهار ، الحرارة فى الجسد تنخفض
 واللذة تنطفئ .
 يحترق كل شئ حتى أحلامه .

يسير فى الغاب ساخطا • وتدوس قدماء الاشواك •
 ثم يعتلى الجبل •
 واقفا ما زال فى مكانه •• منهوكة قواه ، والحرارة تشتعل من جديد فى
 جسده •

ومشهد الكلب وأنشاه لم يمت فى الذاكرة ••
 والحريق ما خمد •• وصوت المؤذن المضطرب والمكان ما احترقا •• فظل
 واقفا ينظر الى أسفل :

عامل يلبس بدلة زرقاء ، يدفع عربة الى الامام ، ثم يختفى •

★ ★ ★

الخريق يكبر مرة أخرى فى ذاته •

والزمن يمضى •

هل يعود الى المنزل ليسلى أمه ؟ ••

هل يبقى فى أعلى الجبل ؟ ••

هل السماء هى السماء •• أم تغيرت فى ذاته ؟ ••

تحرك هو وترك المكان ، وفى نصفه دفء •

5 - فى ليلة ما •

كانت القرية غارقة فى صمتها الثقيل •

وكان وحيدا ، متاثلا فى سيره •

والليلة خريفية ، ولكن السماء مقصورة • صافية ، والاشجار متعانقة ،

وخفيف الاوراق الحان ناعمة رقيقة فى ذاته •

وعاد الجسد الى الصراخ •

- لم لا يزور غانيته فى بيتها ؟

كان يشتهيها ، ويفضلها على كل النساء •

- هى هناك على فراشها ، عارية تماما !

الجسد ! انه يعذبه ! آه ! لو يطير اليها لينعم بالدفء •• هى هناك ••

رشيقة القوام ، متوثبة النهدين .. آه ! لن تنطفىء حرارته أبدا ! جسده
بركان . هكذا حدث نفسه ، فلم لا يزورها ؟

الآن الخوف من المغامرة يقيده ؟
كانت القرية صامته ، وهو يسرع الى بيتها .
ماذا لو قبض عليه الاعداء فى احضانها ؟ هل يتخلص منهم ؟
هزه الخوف فارتجف جسده شديدا ، ثم بقى يتردد .
ربما كانوا ينتظرونه ؟! ربما ...

كانت هذه الهواجس تدمره ، فعاد أدراجه .. وأحس فى طريقه برغبة
فى الصراخ .. ودلو أنها تعلو فى الفضاء فتملؤه بعطر جسدها . ود لو أنها
تسكر الليل بهمساتها ، ثم تسقط بين ذراعيه تقبله ، تقبله تقبله ... فتخمد
النار فى باطنه الى الابد .
واقتنع أنه يجب ان يعود اليها .

وفى طريقه ثانية ، أصاخ السمع فى الظلام الى هبوب الريح ، والى دقات
قلبه العنيفة .
<http://Archivebeta.Sakhril.com>

واقترب من البيت ، ولكن ها هى اللذة تموت فى عالمها الخارجى . ها هو
يعود من حيث أتى ، وجسده يحترق ، فيشتتها من جديد .

★ ★ ★

عندما دفع باب الغرفة ، فهم بغتة فى الظلام - وقد احترقت لذته الخوف -
أنه سائر فى اتجاه الموت .

لكنه لا يراها نائمة على فراشها ؟

أين هى ؟ هل هى موجودة فى بيتها ، أم أنها الوهاجس تخدعه ؟!
وتوقف لحظة ، وتساءل كيف بلغت به اللذة الى هذا الضياع .

.. وإذا يد صلبة تلطم وجهه ، ولم يشعر بالوجع من هول المفاجأة ،
فاستسلم للفرار ، وقادته قدماه الى مكان بعيد ..

يا عاشق الجسد ... أين الملاذ ؟ وأنت فى وحدتك تبعد عن لذة لم
تتحقق . جائع جسديك . عوالمه تشور وتتفجر . هى رحلتك فى المكان ، وفى
الزمن الذى يمضى ..

يضج ترتيل المؤذن من مضخم الصوت فيفعم الآذان ، وترتجف القلوب .
أما هو .. فانه يحترق ويعيش القرية حزنا .

وغضبا فى الظلام ..

وتشتد الريح ، وتهب العاصفة تقتلع الاوراق ، فيراها تدور فى الهواء ،
ثم تسقط على الارض يابسة . وتتجرد ذاته من وجودها . ويشده مشهد أمه
منهوكة ، فيحس بأنه يتخلص من مكانه .. يجرى ويلهث . ويجرى ويلهث .
حتى الغيبوبة . ويسمع وقع اقدام ، وصياحا وضجيجا يمتد ويقتل الصمت
فى داخله .. فيتحرك .

الخريف يموت فى لحظته .
وأيامه فى ذاكرته حريق .
يمضى الزمن وهو سائر فى الظلام ، فلا يتوقف .
يختلط ترتيل المؤذن بالغضب .. ولكنه يسير سريعا .

★ ★ ★

كانت القرية تتراكم سماؤها بالسحب السوداء ، والشارع يضج بالحزن .
وكان وحيدا فى مكانه يبحث عن كلبه الضائع .
أمطار غزيرة تتهاطل ..

من بعيد شيخ يحمل كيسا على ظهره . سيارات فاخرة تمر فى سرعة
انبرق . وقريته تواصل نومها ، وهو يموت فى خريفه .

على عزيرى

1982 / II / 24

فى سبيل الشرف

سهل منبسط كست أرضه بسط من الزهور مختلفة الألوان والأشكال تتراءى للناظر من بعيد كأنها زرابى ماثلة . لم يكن به من الشجر الا شجيرات من السدر منتشرة هنا وهناك . زقزت على اغصانها العصافير . وامتدت على طول السهل مضارب البدو الميامين فى أحياء مصطفة فى منظر بديع، وانتشرت الابل والغنم ترى الكلا فيردد رعاتها أهازيج النخوة والاباء.

وتطل على السهل ربوة انتصبت فوقها خيمة واسعة الاركان ، ممتدة الاطناب تحيط بها أرباق الحرفان ، وحجر الغنم ، وأمرحة الابل ، ورباط الحيل ، وهى خيمة أبى الفداء سيد العشيرة الذى اعتاد أن تكون خيمته بعيدة عن الحي ، تى يجد متسعا لحيواناته الكثيرة ، وبجانب الربوة خيمة صالح راعى إبل أبى الفداء .

وفى يوم صحت سماءه . وأشرقت شمسبه . وهب نسيمه رخاء يحمل أريج الزهور ينعش الارواح ويبعث الانشراح فى النفوس ، عاد أبو الفداء من قنصه ممتطيا صهوة جواده العربى الاصيل ، حاملا بندقيته فوق كتفته . يتبعه كلب صيده وبجانبه احد اصدقائه راجع معه الى الخيمة يتشاوران فى شؤون العشيرة ومرابعها . ولما اظلا على الربوة نادى ربة البيت الخادمة السوداء « سعدى اسرعى افرشى الزرابى وضعى المساند لسيدك ها هو قادم ومعه ضيف » .

فاسرعت سعدى وهيات المكان ودخل أبو الفداء مصحوبا بضيفه . ولما استقر بهما الجلوس نادى أبو الفداء الخادم :

- سعدى

املئنى القحب من حليب وهاتى طبق التمر واشرعى فى حسابى (I)

(I) الأخضر السانحى .

بقيا يتحادثان .

دخلت عليها ابنة أبى الفداء الصغيرة وترامت فى حجره وطوقت بيديها الصغيرتين عنقه ، فضمها الى صدره :

– سلمى مرحبا بنوارة أبيها !!

ثم خاطب ضيفه :

– هذه البنية هى نواراة البيت تذهب عنا السآة والقلق بمرحبا .

نظر اليها الضيف وقال مداعبا :

– إذن هذه زهرة الربوة .

– نعم ، غير أنها بعيدة عن صبيان الحى . لم تجد من تلعب معه ، لولا الصبي الصغير ابن الراعى الذى ألفته فتلعب معه ، وتقضى معه طوال يومها ، وتستريح له ، وقد ألفته وألفها .

وجاء الصبي يعدو :

– سلمى ! سلمى ! هيا نصطاد العصافير ونقطف الزهور .

وذهب الطفلان منحدرين السهل .

واستمرت العشرة بينهما على هذا النحو . تربطهما صحبة الطفولة البريئة الطاهرة . وكلما ترعرعا وشبا تمكن الحب فى قلوبهما ، وامتزج بروحيهما . حتى صارا لا يصبر أحدهما عن الآخر طوال هذه المدة وصارت سلمى فتاة ناضجة الانوثة ، بارعة الجمال ، وسعيد شابا مفتول الساعدين ، قوي البنية ، لا يستطيع مفارقة سلمى أينما حلت فاذا ذهبت الى البئر لتملأ قربتها ، يذهب معها ليساعدها ويؤنسها فى الطريق ، واذا ذهبت لحلب الغنم وربط الحرفان كذلك . وفى ذات يوم – وهما فى طريقهما الى البئر – فاتحها بحبه لها ، فابتسمت ثم تنهدت طويلا ، وززفرت وطأطات رأسها وقالت بصوت خجول :

– إن هذا الحب لا طائل من ورائه يا حبيب الروح ، فأنت حبيب الروح ، ورفيق الطفولة ، وكم أتمنى ألا يفرق الدهر بيننا . ولكن هل تظن أن والدى يرضى بزواجى منك ؟

– ولم لا ؟ وقد قضيت معكم طفولتى وشبابى ! وصار بيتنا من جملة بيوت العشيرة .

– ماذا يقول الناس ؟... إن أبا الفداء سيد العشيرة قد زوج ابنته بابن راعي إبله الغريب عن العشيرة ، فوالدى ينفر من هذه الخطبة نفور السليم من الأجرب

– ... وأنت ؟

– إن حبي لك لا تتسع له الصدور ، ولا تتحملة الاحشاء ، لكن ماذا نفعل وكلانا طعين سكين من العادة والوهم ، وإننى مضطرة أن أضحي بهذا الحب فى سبيل سمعة والدى وحتى لا يخذل ويبقى مطأطىء الرأس بين القبائل .
وهكذا أستمر بهما الامر حتى تغامزت بهما العيون ، وصارا حديث السمار ، فبلغت تلك الاراجيف الى والد الفتاة وعلم بأن ابنته مفتونة بابن الراعى ، فدخل على زوجته وقال :

– هل تعلمين أن سلمى تحب سعيدا ؟

– سعيد ؟ هو أخوها نشأ وتربيا معا منذ الطفولة .

– أعرف ذلك ، ولكنك تعلمين بهذا الحب وتكتمينه عني .

– قلت لك : إنه أخوها ، وتحبه حب الاخت ل أخيها . وكثيرا ما تدعوه معها أنى ذهبت للاستئناس والاتماء به .

– النعجة لا تحتمي بالذئب يا أم سلمى !

تلتفت وتشتغل عنه ببعض شؤون البيت ثم تقول :

– تعبه عباداة !

يطرق أبو الفداء مفكرا :

– صدق الاولون : « بعد الانثى على الذكر ما يأتيك شر » ، هذا كله من غفلتنا وعدم احتياطنا .

– اللوم بعد القضاء بدعة .

– اسمعى يا امرأة : من الآن تبتعد سلمى عن سعيد هذا . ولتعلمى أنى سأزوجها لابن عمها سالم .

– سالم الطفل الصغير ، الذى لا يتجاوز الثانية عشرة من العمر . أتجننى على ابنتك ، ولا ذنب لها ، أتزوجها من صبي وقد جاوزت العشرين !

- المستقبل أمامه سيكون شابا .
- « ماكبر البهيم كان ما صابت أمه دنيه » .
- هذا ما قررت وسيتم .

ومن ذلك الوقت وقع الفصل بين الحبيين ، وصارا لا يتقابلان الا خلسة ، أثر فيهما ذلك الاتهام حتى لفتا الانظار . وزادت الارجيف انتشارا سيما بين الشبان الفتيات وذات يوم ذهبت سلمى الى الحى لتروح عن نفسها ، وتتحدث مع فتيات الحى عساها تجد متنفسا يخفف عنها وطأة الحياة القاسية التى صارت تعيشها ، وقصدت بيت عمها حيث وجدت جمعا من فتيات الحى جمعتن زوجة عمها لغزل الصوف . ولما دخلت عليهن حدد جنهما بأنظارهن وصرن يقهقهن .

- رفعت احدان رأسها ، وقالت فى سخرية :
- ما بال الزهرة النظرة ذابلة وعهدى بفصنها أخضر ريان .
- فضحكت أخرى وقالت :
- إن النبع الذى كانت تستمد منه نضارتها قد جف .
- وتعالى الضحك فنفرت سلمى كما تنفر الريم وقالت :
- كفى دعاة يا عائشة !

ورجعت الى بيتها ، وانزوت فى كسره تبكى حتى اذا جاءت أمها ورات حالها قالت منزعة :

- ما يبكيك ! ما أصاب ابنتى ؟
- لا شىء ...
- كنت فى الحى ؟؟
- فهمت .

- دخل ساعتها أبو الفداء فخرجت سلمى .
- ما بال سلمى وقد بلل الدمع عينيها ؟

- عجل بزفاف الفتاة الى سالم وليبتعد عنا صالح أبو سعيد حتى يندمل الجرح .

فطاطاً الاب رأسه .

— نعم سيتم هذا بحول الله .

وفى الليل اتصلت سلمى بسعيد . وأشارت عليه بالابتعاد عنها . وحذرتة من مغبه مكوته اذ ان شباب القبيلة يترصدون به . وقد يقتلونه .

وفى الصباح طوى صالح أبو سعيد بيته . وزم رحاله والتحق بالعشيرة . وزفت سلمى لابن عمها الصغير ؛ فكان الزفاف مأتما لحبها . وقبرا لعواطفها ، فام تفتح لسالم قلبها . ولئن ضاجعته بجسدها . فهو لم يزل طفلا لم تتأجج عواطفه ، ولم تنضج غرائزه ، ينام على عشائه ، فتحمله بين يديها كالرضيع الى فراشه ، وتضطجع بجانبه تتقلب على فراشها وهو يغط فى نومه فتتنهد وتردد : « جرائى كما عشبة الكاف صافت ولا من كلاها » .

وتمر سنوات ثمان على هذه الحال . صار فيها سالم شابا يافعا . ويتعلق بفتاة من بنات الحى تصغره سنا فيهم بها وينفر من سلمى التى ناهزت الثلاثين ، وقد مالت زهرة شبابها الى الذبول ، تمر أمام مخيلتها فتهيم فى ذكريات الماضى مع حبيب قلبها ، ورفيق الطفولة الذى هو الآخر لم يقو على حصر أفكاره والتغلب على عواطفه ، وأصبح لا يذوق للحياة طعما ولا يرى شيئا الا ويكسوه وجه سلمى حتى صار يلاحقه خيالها يتجسم فى كل شىء أمامه ، فعزف عن النساء .

قضى تلك السنوات الثمانى يعانى حرقه الفراق حتى دفعه حنينه وشوقه الى الاتصال بحبيبته ولو ادى ذلك الى قتله .

ارتدى ثيابا بالية فى زى متسول وسرح شعره ، وأطلق لحيته ، واتجه نحو حيفا ، فسار على غير طريق ، ترفعه النجاد ، وتخفضه الوهاد ، حتى وصل الحى فى ليلة غدافية الاتعاب ، حالكة الجلباب ، قد أربد جوها ، واكفهرت سماؤها ، وزمجر رعدا ، وتهاطلت أمطارها ، ولم يكن له دليل الا وميض البرق ، كلما أضاء له مشى فيه ، ولما وصل الحى ، وقف أمام خيمة سلمى ، فنابحته الكلاب ، فنادى : (يا أحباب ربى ، غريب يطلب كنا وقوتا) .

وسلع سالم هذا الصراخ فتأثر ونادى سلمى قائلا :

— أسرعى لهذا المسكين ، وهيئى له مكانا بالكوخ الذى بالمرح ، وأحضرى له العشاء حتى يقضى ليلته وتنقشع السحب .

ولما سمع سعيد أبو سلمى ، انتابه احساس غريب ، وانتفض كالصفيور بلله القطر . وتقلص كل عضو من جسده واختلط في ذهنه كل شيء ، وخفق قلبه بين ضلوعه فتنفس الصعداء وقال :

صوت مناد دعا سلمى فخفف له نشوان في جنبات الصدر عرييد (2)
واسرعت سلمى . وطرحت بساطا في الكوخ ونادت السائل :
- ادخل .

دخل سعيد الكوخ ، وجاءت سلمى تحمل بين يديها طبقا به خبز وقدر اللبن . ولما قربت منه ناولته الطبق والقدر .
أومض البرق فأضاء في وجه سعيد ، فلما عرفته شهقت وارتجفت ، فسقط الطبق من يديها .
- انت .

واعترتها قشعريرة ، وصارت ترتعش ، ورجعت الى البيت مضطربة . فلاحظ سالم اضطرابها فقال :
<http://Archivebeta.Sakhrit.com>
- ما لي أراك ترتعدين ؟
- من البرد .
- أراك مضطربة ؟

- لا شيء ، الا أن رجلى قد عثرت في الظلام وسقط القدر من يدي فأريق اللبن .
ثم ملأ القدر ثانية ورجعت الى الكوخ ، ناولته سعيدا وهمست له :

إياك أن يطلع عليك الفجر هنا . فان ذلك حتفك وحتفى ، اذ ما زالت النار في صدور رجال الحى لم تخدم بعد .

ورجعت مسرعة وباتت تلك الليلة دون أن يغمض لها جفن . تتقلب في فراشها وقلبها يتقطع زفرات وحسرات فالتفتت أنظار زوجها لقلقها .

(*) أحمد شوقي بتصرف .

- ما أصابك هذه الليلة ؟

- لا شيء غير أنى تذكرت بيتنا .

ثم أخذتها غفوة وقامت ترتعش ، فاستوت جالسة ، ثم تحسست زوجها بجانبها ، ولما تحققت أنه نائم قامت على حذر تختلس الحطى . حتى وصلت الكوخ حيث وجدت سعيدا قائما شاخصا الى السماء كالناسك فى محرابه . ولما وقفت أمامه لم يتمالك نفسه اذ ارتمى عليها فى حارة وتلفف وضما الى صدره وانهمرت الدموع من عينيها . ولما هم بتقبيلها ابتعدت عنه .

- أترضى يا سعيد أن تدنس حبنا الطاهر ؟

- سامحيني لقد اخطأت .

وابتعد عنها ووقف أمامها ونظر اليها وقال :

- فوداعا يا أكرم الناس عندي فى اعتزالى فى يقظتى فى منامى

ووداعا يا من أفكر فيها كى تناجيك بعد موتى عظامى (3)

فاذا مت فاجلسى عند قبرى عن ممر الدهور والاعوام

وأدار وجهه وولى مسرعا عنها . وبقيت سلمى شاخصة حتى اختفى شبجه .

من أمامها وهى تدرى أنها تودعه الوداع الاخير . وعادت الى البيت .

وفى اثناء ذلك استيقظ سالم من نومه فمد يده الى الفراش فلم يجد زوجته

بجانبه فاستوى جالسا ونادى :

- سلمى أين كنت والفجر لم يطلع بعد ؟

- كنت هنا .

فقام وقد تضاربت أفكاره ، وتسرب اليه الشك سيما وقد تراءى له

الماضى شريطا ، مسرعا . وأخذ بندقيته وتظاهر بتفقد ابله . ولما وصل الكوخ

لم يجد المتسول فصار الشك يقينا . مما دفعه الى اقتفاء أثره حتى تراءى شبج

يدحرجه الفضاء وحث الحطى الى أن التحق به ، ولما قرب منه ناداه :

- من الرجل ؟

(3) محمد المرزوقى .

فاسرع الرجل ، وهروا سالم ليلتحق به ولما أمسك بكتفه ، أدار الرجل وجهه نحوه .

– أنت ؟ ألم يكفك ما ألحقته بنا من عار . لقد لوثت عمامة عمي بين القبائل ثم تواصل خيانتك أيها الغادر الكافر بالنعمة ؟

ويصوب نحوه البندقية ويفرغ في صدره رصاصتين .

« خذ جزاءك أيها الخائن !! » .

وجره من رجله الى منحدر تحت شجرة ، ورجع الى بيته ، هادىء البال ، مطمئن الخاطر ، كأن شيئا لم يقع .

ويجد سامى متدثرة بغطائها تغط فى نوم عميق بعد ان ظنت انها اطمأنت على حبيبها الذى نجا من الخطر الذى ينتظرهما معا . جلس سالم بجانبها والشرر يتطاير من عينيه وتريت قليلا حتى طلع الفجر ثم أيقظها من نومها .

– قومى قد طلع الفجر . وانا ذاهب الى المدينة ، فانى تركت الفرس ترعى فى هذا المنحدر هيا معى لتعرفى مكانها حتى تراقبها فى غيابى . فقاما معا . وأخفى سالم فأسا تحت ثيابه ، واتجها نحو المنحدر ولما وصلا الى مصرع سعيد ، رأته سلمى مضرجا بدمائه ملقى على وجهه ، فارتاعت وصاحت :

– رجل ميت !!

– من هو تحققى منه .

ولما انحنت للتعرف عليه . سددها ضربة بالفأس أصابت رأسها فسقطت على جثة سعيد .

« الى الجحيم أيها الخائن » .

وذهب الى المدينة وآلة الجريمة فى يده . وقد نفسه للعدالة مرتاح البال . ولما سئل عن الدوافع قال بكل برودة :

فى سبيل الشرف .

في مكتبة مجلة «قصص»

الطفلة انتحرت

حفيظة قارايبيان يمن

مجموعة لوحات قصصية تؤلف بينها الدكنة والقتامة • هي رسوم من معاناة الحزن والخيبة والالم والنقمة والضياع •

مسرحتها الليل ومحيطها الغيم والامطار الدائمة لا تنفرج عن بارقة أمل • نابضة بالحياة والحركات التعبيرية ، جياشة بالمشاعر ، طافحة بالانفعالات والاحساسيس • تعوض دقة وصفها لحالات الاضطراب في حياة أبطالها عما يطلب عادة في الاقاصيص من عقد وحلولها •

تنضاف الى سميتها العاطفية روح ناقدة لاحوال المجتمع وللأطفال التي تعترى نظام بعض مؤسساته •

عدد الصفح : 134 • الثمن : 1.200 د. ل - 1.800 د. ت - الناشر : الدار العربية للكتاب

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

صاحبة الجلالة

عبد القادر بن الحاج نصر

الرواية هي قصة حب متشابك بين ثلاثة شبان وفتاتين جمع بعضهم العمل برحاب «صاحبة الجلالة» الاذاعة •

البطل «غانم» حلم طويلا بالدخول الى هذه الدار والعمل بها ، ولكنه عندما تحقق حلمه وأصبح واقعا يحياه ، أحس بأنه مذيب للشخصية قاتل للمواهب عائق للطموح معرض بصاحبه الى الاجحاف والظلم بما يجرى فيه من محسوبية واحتكار للبرامج •

عاش في هذا الجو غريبا منطويا على نفسه لم تسترعه حتى تلك الزميلة الفاتنة «سلسبيل» (البطلة) المتحررة المغربية التي أحبته وشغفت به معرضة عن «كامل» الذي يهيم بها ويتمسح على اعتبارها ، بينما هو شغوف بغيرها «محزنية» التي كان يهيم به «عاباس» أيضا •

ويسام «غانم» هذه الاجواء المهنية والعاطفية في «صاحبة الجلالة» فيقرر الافلات منها والسفر الى الخارج ليواصل دراسته ...

غير ان قيمة الرواية لا تكمن في تحليلها الدقيق للعواطف والانفعالات النفسية وفي اسلوبها المشوق لمتابعة الاحداث فحسب بل وبما تتعرض له خلال السرد والحوار من قضايا اجتماعية حساسة .

عدد الصفح 160 . الثمن : 1.300 د.ل - 1.850 د.ت - الناشر : الدار العربية للكتاب

النهضة والسقوط في الفكر العربي الحديث د. غالى شكرى

يحاول غالى شكرى أن يكشف في هذا العمل الظاهرة الجدلية في تاريخ الفكر العربي الحديث ظاهرة النهضة والسقوط ، وذلك من داخل زمان اجتماعى ومكان تاريخى وعينة نموذجية هي عصرا محمد على وجمال عبد الناصر وما بينهما ، باعتبارها مجرد مادة للبحث ، مستهدفا من عمله هذا استخلاص القوانين الاجتماعية الثقافية المضمرة فى هاتين الظاهرتين ، ايمانا منه بأن الوعى بهذه القوانين يساعد العقل العربى على ابتداع مقولات جديدة تشور النهضة وتساعد الاستراتيجية العربية على ابتداع مسالك جديدة لمقاومة التخلف والسقوط .

عدد الصفح : 368 - الثمن 3.600 د.ل - 5.400 د.ت - الناشر : الدار العربية للكتاب

★ - نظام الشرطة فى الاسلام :

رسالة جامعية تأليف محمد الشريف الرحموني

والشرطة ... فرع من فروع الحكومة الاسلامية ، وتاريخها متصل بتاريخها اتصالا وثيقا وهى - رغم اهميتها ودورها فى سلامة المجتمعات الاسلامية وعملها على تقدمها واطمئنانها - قد تعرضت الى الاهمال من طرف العلماء قديما ، ورغب عنها الباحثون حديثا ، فلم يفردها أحد بالتأليف، والحال ان نظام الشرطة فى الاسلام يمثل جانبا هاما من تراثنا الحضارى الذى يتحتم العمل على اظهاره ...

جاءت هذه الرسالة لتكشف عن حقيقة هذا النظام وما يتصل بأطواره وادواره واجهزته ، وتزيح الغموض الذي يكتنفه وتعرف بوظائفه الكبيرة ومراميه النبيلة .

عدد الصفح : 424 . الثمن : 4.500 د.ل - 6.800 د.ت - الناشر : الدار العربية للكتاب

★ - الامامة والوضع في الحديث عند الفرق الاسلامية :

رسالة جامعية تأليف محسن عبد الناظر

قضية الامامة لئن استطاعت تخطي عقبة العصبية القبلية عند وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام، فانها ما لبثت ان تقسم المسلمون من اجلها شيعا واحزابا تجاوز اختلافهم حولها الصراع السياسى الى الاختلاف فى الرأى والاجتهاد والعقيدة فالتجؤوا الى السيوف والقتال ثم الى الوسائل الدعائية ليقتنعوا بها خصومهم ويقيموا عليهم الحجة بوجهة نظرهم ، ومما احتجوا به على صحة مفهومهم للامامة احاديث نبوية متضاربة بتسجيل ان يكون مصدرها واحدا .

وقد عملت هذه الرسالة الجامعية على استقراء الاحاديث الموضوعة حول الامامة ودراستها دراسة تحليلية مبرزة دور السياسة فى حمل الواضعين على تبوى مقاعدهم من النار .

وقد تركزت الرسالة على ثلاث أبواب : الامامة بين الجواز والوجوب ، الامامة بين التعيين والاختيار ، الامامة وأصل الاختلاف .

عدد الصفح : 512 الثمن : 5,300 د.ل - 8.000 د.ت - الناشر : الدار العربية للكتاب

البحر ينشر الواحه

محمد صالح الجابرى

الرواية قصة أحد أبناء الريف «دربال» يخوض الحياة العصرية فى المدينة ناهزا مع الغواية بدوله ، آخذا من لهوها وترفها بنصيب ، لكنه يخرج فى النهاية خائبا محطم النفس خاوى القلب والعقل ، ويلتجئ الى حل شبيه بالذى اختاره أهل الكهف حين آثروا العود من حيث جاءوا ، فيترك وراءه حياة المدينة بتعقدها عائدا الى قريته المنسية لاثدا بها من الضياع ملتصقا منها أن تجدد له معنى الحياة .

تتفرع عن هذه القصة قصص أخرى تبدو كأنها قائمة بنفسها لولا خيوط خفية عبر التآلف الواضح أو الابهام الجذاب فتربط الفروع بالهيكل الاصل في وحدة متماسكة وحكمة بارعة .

عدد الصفح : 208 . الثمن : 1.350 د. ل - 1.750 د. ت - الناشر : الدار العربية للكتاب

القمر والاسوار

عبد الرحمان مجيد الريعى

هذه الرواية هي حكاية المجتمع العراقي فى تفاعله مع الواقع السياسى والاجتماعى على الساحة العراقية والعربية فى منتصف هذا القرن .

انها تصوير لبداية تسرب الوعى لدى الامة العربية فى صراعها ضد فساد الحكم ومن ورائه قوى الغرب الذى اتى دخيلا ثم تواطأ مع الصهيونية فثبتها فى قلب الارض العربية ومكنها منها .

انها حكاية جيل عايش الواقع المر المتدهور دون محاولة لتغييره ، وآخر جابه التقاليد الاجتماعية البالية بنضج وموضوعية من جهة ، وخاض معركة المقاومة الايجابية للحكم والسياسة من جهة اخرى .

انها تتلخص فى معانى البعث والىلاد والتطلع ...

عدد الصفح : 336 . الثمن : 1.900 د. ل - 2.850 د. ت - الناشر : الدار العربية للكتاب

موعد عند الافق

عبد الصمد زايد

هذه الرواية تتعرض الى المفارقات النفسية والايديولوجية والنوقية وبعبارة أشمل : تتعرض الى المفارقات الحضارية بين الشمال بسماته الغربية وقيمه المادية والجنوب بسماته الشرقية وقيمه الروحية وظروف تخلفه، محاولة إثبات أنه فى الامكان برغم الهوة العميقة التى تفصل بين الحضارتين ، أن تفيدا من بعضهما وان تدرك كلتاها سلبياتها وتصحيح مفاهيمها للحياة

والسعادة والزمن ، فيحصل لهما بالتقارب شيء من الإصلاح والتعديل ويحل الحوار محل التنافر والصدام .

في « موعده عند الافق » يأتي عبد الصمد زايد بالشمال الى الجنوب - على عكس الطيب صالح في « موسم الهجرة الى الشمال » وذلك عبر علاقة شاب (ويرمز به الجنوب) وشابة (ويرمز بها للشمال) جاءت الى موطنه وعاشرته على أمل الانسجام .

ولئن لم يتيسر بمعاشرتهما هذه وفاق ولا تطابق فان هذه المعاشرة نبهتهما الى قصور ما كان عليه كلاهما ، وعززت ما يحسان به من شعور بالضياع ، فاصبح كل منهما بالنسبة الى الآخر فرصة ومقياسا لتعديل الذات واصلاح النفس .

وفي الرواية شخصية أساسية ثالثة هي الليل هذا الشيخ الهرم ذو العود الصلب الحاضر باستمرار يبت اللسياسة ويكيد للناس وللحياة ويحتال على النور والحق .

عدد الصفح : 256 الثمن : 2.000 د.ل - 2.850 د.ت - الناشر : الدار العربية للكتاب

ومضات فكر (ج 1 - ج 2)

محمد الفاضل بن عاشور

هذه الومضات هي جملة من المحاضرات القيت على منابر مختلفة في الجامعات اللغوية والعلمية والادبية ، او جملة من المقالات التي نشرت في المجلات والدوريات بمناسبات معينة، تكاد تتمحور على غزارة مادتها وتعدد مواضيعها حول : دراسات قرآنية وحديثية ، قضايا اسلامية معاصرة ، تحقيقات فقهية ، بحوث لغوية ، تحليلات تاريخية ، دراسات ادبية وفلسفية . نماذج من الحضارة الاسلامية احاديث بمناسبات ، ذكريات .

ج - 1 : عدد الصفح : 420 . الثمن 3.800 د.ل - 5.200 د.ت - الناشر : الدار العربية للكتاب

ج - 2 : عدد الصفح : 452 . الثمن 4.000 د.ل - 6.000 د.ت - الناشر : الدار العربية للكتاب

الابن الذي يجمع شتات الذاكرة

حرز الله محمد الصالح

مجموعة قصصية تدخل مواضيعها ضمن إهتمامات الكتاب الجزائريين الجدد الذين يحتل حرز اله من بينهم مكانة مرموقة برهافة حسه الاجتماعي ولغته القصصية الشعرية وقدرته على ممارسة « التجريب » .

تدور القصص حول محاور ثلاثة :

(1) الهجرة بصفتها مشكلا « إنسانيا - جماعيا » ، وبصفتها مشكلا « وطنيا - اجتماعيا » ، وفي إتجاهيها : من الوطن إلى الغربة ، ومن الريف إلى المدينة .

(2) البيروقراطية والاستهتار بأسؤولية والعبث بالمصالح العمومية .

(3) قضية الصراع بين الشرق والغرب ووضعية العالم الثالث والاستعمار الجديد .

عدد الصفح : 80 الثمن : 0,700 د.ل. ، 0,950 د.ت. الناشر : الدار العربية للكتاب .

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

القوانين الفقهية

ابن جزى الكلبي (693 - 741 هـ)

هو كتاب فى قوانين الاحكام الشرعية ومسائل الفروع الفقهية على مذهب إمام المدينة ملك بن أنس ، وفيه التنبيه على كثير من الاتفاق والاختلاف بينه وبين غيره من سائر الايمة الاربعة والتنبيه على مذاهب غيرهم من الايمة كسفيان الثورى والحسن البصرى وعبد الله بن المبارك واسحاق بن راهوية وأبى كور والنخعى وداوود الظاهرى والليث بن سعد وسعيد بن المسيب والاوزاعى

يقول مؤلفه عنه :

« هذا الكتاب ينيف على سائر الكتب بثلاث فوائد :

- (1) يجمع بين تمهيد المذهب وذكر الخلاف العالي ،
 - (2) يمتاز بحسن التقسيم والترتيب ، يقرب البعيد ويلين الشريد ،
 - (3) فيه الجمع بين الإيجاز والبيان على أنهما قلما يجتمعان .
- عدد الصفح : 216 الثمن : 1,800 د.ل. - 2,700 د.ت. الناشر : الدار العربية للكتاب .

مواقف ومقاصد في الفكر الاسلامي العقارى

د. محمد ياسين عريبي

هذا الكتاب هو مجموعة من البحوث المتعددة التي هي عبارة عن مداخل وتمهيد لمقارنة الفلسفة في الاسلام بالفكر الاوروبي الحديث .

يقول المؤلف في شأنها :

« من خلال هذه الدراسات يتضح لنا الكثير من العلاقات بين الفكر الاسلامي وفلاسفة الغرب من أمثال ديكارت Descartes واسبيوزا Spinoza ومالبرانش Malebranhe وبراكلي G. Berkley ولوك J. Lcoke وغيرهم ، لان الفكر حلقات متشابكة ومتصلة مع بعضها البعض ... لا توجد نقطة نهاية الا وهي في نفس الوقت بداية حركة جديدة » .

عدد الصفح : 468 . الثمن : 2,800 د.ل. - 4,200 د.ت. الناشر : الدار العربية للكتاب .

المجتمع في المسرح العربي الشعري

د. أحمد سليمان الاحمد

دراسة أدبية اجتماعية للمسرح الشعري العربي ، وتحليل لبعض ما عاينه من قضايا ومشاكل كانت في ابانها مشاغل المجتمع ...

وانما خص الدارس المسرح الشعري بالعناية رغم ضيق مجاله بمقارنته بالمسرح النثري الاكثر فسحة لمثل هذه الدراسات ، لان المسرحيات تقرأ من الجمهور العربي أكثر مما تشاهد ،

فالشعر اذن ، بما يملكه من موسيقية متميزة كثيرة العلوق بالذاكرة ،
مؤهل أكثر لان يحمل الحقيقة الاجتماعية التي يريد الى الشعب .

عدد الصفح : 280 . الثمن : 0,900 د.ل. - 3,100 د.ت. الناشر : الدار العربية للكتاب

الارض في شعر المقاومة الفلسطينية محمد القاضي

يستكنه القاضي في دراسته هذه مدلول « الأرض » في شعر المقاومة
الفلسطينية ، لا سيما في آثار ثلاثة شعراء هم : توفيق زياد ، سميح القاسم
ومحمود درويش ، فاذا هي ذات طاقة رمزية ومنبع لعواطف إنسانية وضمان
للبقاء الفلسطيني ومشعل للمقاومة السياسية وبؤرة للايمان بنداء المستقبل .

(عن المقدمة بتصرف)

عدد الصفح : 286 الثمن : 1,750 د.ل. - 2,800 د.ت. الناشر : الدار العربية للكتاب .

ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>